

المدينة في العالم الإسلامي

المجلد الأول

تحرير

سلمى الخضراء الجيوسي

ريناتا هولود أتيليو بيتروشيولي أندريه ريمون

الفهرسة أثناء النشر - إعداد مركز دراسات الوحدة العربية
المدينة في العالم الإسلامي/ محرر عام سلمى الخضراء الجيوسي؛ محررون خاصون ريناتا هولود، أتيليو بيتروشيولي وأندريه ريمون.
٢ مج.
محتويات: مج ١.
يشتمل على فهارس.
ISBN 978-9953-82-671-4 (vol. 1)
ISBN 978-9953-82-670-7 (Set)
١. المدن الإسلامية. ٢. المدن العربية. ٣. الآثار الإسلامية. ٤. بغداد - تاريخ. ٥. فاس - تاريخ. ٦. تونس - تاريخ. ٧. القاهرة - تاريخ. ٨. القدس - تاريخ. ٩. حلب - تاريخ. ١٠. بورصة - تاريخ. ١١. طرابلس - تاريخ. ١٢. الجزائر - تاريخ. ١٣. كرمان - تاريخ. ١٤. إسطنبول - تاريخ. ١٥. بُخارى - تاريخ. ١٦. سمرقند - تاريخ. ١٧. شيراز - تاريخ. ١٨. أصفهان - تاريخ. ١٩. أغرا - تاريخ. ٢٠. حيدر آباد - تاريخ. ٢١. صنعاء - تاريخ. ٢٢. هَرَر - تاريخ. ٢٣. الرباط - تاريخ. ٢٤. سلا - تاريخ. أ. العنوان. ب. الجيوسي، سلمى الخضراء (محرّرة). ج. هولود، ريناتا (محرّرة). د. بيتروشيولي، أتيليو (محرّر). هـ. ريمون، أندريه (محرّر).
953

العنوان الأصلي بالإنكليزية
The City in the Islamic World (vol. 1)
edited by Salma K. Jayyusi [et al.]
(Leiden; Boston, MA: Brill, 2008)

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص.ب: ٦٠٠١ - ١١٣
الحمراء - بيروت ٢٠٣٤ ٢٤٠٧ - لبنان
تلفون: ٧٥٠٠٨٤ - ٧٥٠٠٨٥ - ٧٥٠٠٨٦ - ٧٥٠٠٨٧ (٩٦١١+)
برقياً: «مرعربي» - بيروت
فاكس: ٧٥٠٠٨٨ (٩٦١١+)
email: info@caus.org.lb
Web Site: <http://www.caus.org.lb>

حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة للمركز
الطبعة الأولى
بيروت، أيار/ مايو ٢٠١٤

الفصل الرابع والعشرون

حيدر أباد القرن التاسع عشر:
إعادة تخطيط التراث المديني

آليسون ماكنزي شاه(*)

في القرن التاسع عشر، كان يسهل تعريف مدينة حيدر أباد الهندية كمدينة من العالم الإسلامي. فقد رحل إليها عرب، وأحباش، وباتان، وعسكريون أتراك، وصوفيون، وفقهاء، وأمراء مسلمون، شيعة وسنة، من شمال الهند وجنوبها، جاءوا كلهم إلى عاصمة دولة آصف جاه، بحثاً عن رعاية «النظاميين»، الأسرة الحاكمة في المدينة المغولية. من تنظيم المكان، إلى روزنامة الشعائر، ومن لباس البلاط المغولي إلى اللغة الفارسية، صاغت المثل العليا لحكام حيدر أباد وممارساتهم ومجتمعهم المسلم المتنوع حياة المدينة.

وبينما المدينة إسلامية في تقاليدها الثقافية، وسلطتها السياسية على قوة متزايدة في جنوب آسيا القرن التاسع عشر، بدا البريطانيون، العامل المديني الجديد، الوسيلةَ لعرض الثغر الثقافية في تلك الهوية ـ أي غياب المخطط المديني الشامل ـ الأمر الذي سمح للسلطات البريطانية النظر إليها بوصفها مدينة من القرون الوسطى.

نظر البريطانيون إلى المدن الاستعمارية بوصفها مدناً مخطَّطة وسكانها منظّمين، في حين رأوا المدن الهندية مدناً عشوائية. وخدم النقص هذا في زعم السعي إلى إعادة تعريف الأمكنة وفق التقاليد السياسية والقيم المجتمعية التي تحتاج إليها في

(*) أستاذة مساعدة في التاريخ، جامعة كولورادو.

الدخول إلى حداثة استعمارية[1]. إن تقسيم المدن هذا إلى فئات متعارضة عصرية/ استعمارية وتقليدية/ محلية قديم قدم الجمع بين التخطيط المدني والمشروع الاستعماري؛ ومع ذلك، وبسبب طبيعة أرشيفات النصوص حول المدن، لا تزال تحليلات التنظيم المدني في حقبة الاستعمار تمتحن بمفردات العمليات الأوروبية، المرتكزة على وزارات الأشغال العامة، والأهداف الأوروبية، من مثل الصحة والضبط الاجتماعي[2].

هكذا، بدت المدن، مثل حيدر أباد، التي «تعصرنت» في القرن العشرين وفق طرائق تخطيط أوروبية، مدناً فرعية في أحسن الأحوال[3]. إلا أن استخدام منهجية بديلة تركز على الرعاية المعمارية لحاكم حيدر أباد متصف القرن التاسع عشر، نظام الخامس، أفضل الدولة، سيكون في وسعها أن تقدم، بدلاً من الرؤية المدينية، أرشيفاً بصرياً بالمواد التي تتصل بالماضي ما قبل الاستعماري.

أولاً: أفضل الدولة، الرعاية، والتغيّر الاجتماعي

حكم نَواب مير تهنئة علي خان، أفضل الدولة، آصف جاه الخامس من مدينة حيدر أباد، دولة الدَّكَن التي تحمل الاسم نفسه لمدة اثني عشر عاماً بين عامي ١٨٥٧ و١٨٦٨. كان الحاكم الخامس من سلالة مغولية حاكمة تعرف بآصف جاه، أو بـ «النظاميين» ـ كتعبير عامّي استناداً إلى لقبه المغولي نظام الملك ـ الذين جعلوا من مدينة حيدر أباد عاصمة لهم عام ١٧٧٠. وأفضل الدولة معروف في الأصل في المنشورات البريطانية

(١) انظر: V. Oldenberg, *The Making of Colonial Lucknow, 1865-1877* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1984).

(٢) لأمثلة داخل التاريخ المديني، انظر: Narayani Gupta, «Military Security and Urban Development: A Case Study of Delhi, 1852-1912,» *Modern Asian Studies*, vol. 5, no. 1 (1971), pp. 61-77; Ira Klein, «Urban Development and Death: Bombay City, 1870-1914,» *Modern Asian Studies*, vol. 20, no. 3 (1986), pp. 725-754; Susan Neild, «Colonial Urbanism: The Development of Madras City in the 18th and 19th Centuries,» *Modern Asian Studies*, vol. 13, no. 2 (1979), pp. 217-246, and Norma Evenson, *The Indian Metropolis: A View toward the West* (New Haven, CT: Yale University Press, 1989).

بدأت بعض الدراسات بالعمل خارج التخطيط، أبرزها: J. C. Masselos, «Appropriating Urban Space: Social Constructs of Bombay in the Time of the Raj,» *South Asia*, vol. 14, no. 1 (1991), pp. 44-67.

(٣) انظر: Thomas R. Metcalf, *An Imperial Vision: Indian Architecture and Britain's Raj* (Berkeley, CA: UCP, 1989), and G. H. R. Tilloston, «Vincent J. Esch and the Architecture of Hyderabad, 1914-1936,» *South Asian Studies*, vol. 9 (1993), pp. 29-46.

في منتصف القرن التاسع عشر كـ «حليف أساسي من سلالة حاكمة وفيّة دائماً»، بالرغم من كونه حاكماً ذا شخصية فظّة تؤمن بالخرافات(٤).

يسعى هذا الفصل إلى إعادة بناء ديناميات علاقة أفضل الدولة بالبريطانيين، ويبحث في مسألة تحالفاته، والطابع «الخرافي» لنظرته إلى العالم وعلاقتها بالتقليد الإسلامي والهندي ـ الإسلامي، في إطار إظهار طريقة هذا «النظام» في بناء هويته منذ منتصف القرن التاسع عشر، والمعبّر عنها في الشكل المديني: كمعلم في وسع الجميع قراءته.

تزامن حكم أفضل الدولة مع انتقال رئيسي للسلطة الاستعمارية في جنوب آسيا من شركة الهند الشرقية إلى التاج البريطاني في إثر تداعيات انتفاضات عام ١٨٥٧. اعتبرت حدود الهند البريطانية حدوداً دائمة بحيث لا يكون هناك المزيد من التوسّع. أما المناطق الواقعة خارج الحكم الاستعماري المباشر فقد أدخلت في علاقات رسمية جديدة مع التاج البريطاني.

هكذا أحدثت انتفاضة عام ١٨٥٧ تغييراً سياسياً مهماً في حيدر أباد المتمتعة بالحكم الذاتي، ووقّعت معاهدات جديدة رسّخت أول ضمانة سياسية حقيقية لسلالة آصف جاه منذ وصول البريطانيين إلى الهند في القرن الثامن عشر. وتم أخيراً ضمان عدم ضمّها إلى الهند البريطانية من خلال تعيين «نظام» رئيساً لفئة سياسية حديثة التعريف، هي الدولة الأميرية. وفي الوقت الذي كانت هذه الدولة مستقلة بالاسم، استمر المسؤولون البريطانيون مع ذلك ـ بفعل امتلاكهم في هذا الجزء أقوى تجمع عسكري لهم في جنوب الهند ـ في تأدية أدوار استشارية رئيسية في شؤون حيدر أباد. لقد ارتبطت الضمانة السياسية بدعم الحكم البريطاني الجديد.

لم يكن نظام الخامس أول حاكم على حيدر أباد في القرن التاسع عشر يتمتّع بضمانة سياسية وحسب، بل كان كذلك أول من أمّن بتصرفه خزينةً ماليةً مليئة. وفي حين جعلت سنوات الدّين السابقة أسلافه يبيعون للمصرفيين وارداتهم الإقطاعية

---

(٤) Richard Temple, *Journals Kept in Hyderabad, Kashmir, Sikkim and Nepal* (New Delhi: [n. pb.], 1977), p. 72.

تنسب الممارسات الخرافية في دعمه الفقراء، وفي معارضته لحداثية الوزير سالار جنغ الذي حل حكومة نظام واستبدلها بنظام بيروقراطي. انظر: General Fraser, *Our Faithful Ally, The Nizams: being an Historical Sketch of Events Showing the Value of Nizams Alliance to the British Government in India and his Services during the Mutinies* (London: [n. pb.], 1865).

فضلاً عن مجوهراتهم، كان نظام الخامس قادراً في النهاية على سدّ الديون تلك[٥]. ومن موقعه الجديد كنظام لإمارة حيدر أباد، الدَّكَن، المزدهرة مالياً، قام أفضل الدولة بأول تدخل ملكي رئيسي في شكل المدينة في ما يزيد على الخمسين عاماً، فارضاً على النسيج المديني هوية سياسية جديدة. فقد أعاد عام ١٨٥٨ تأهيل الأقواس الضخمة في قلب المدينة، تشار كمان، المشيّدة عام ١٥٩٥ كجزء من تأسيس المدينة. وبين عامي ١٨٥٩ و١٨٦١، رعى بناء جسر له بوابة فخمة تؤدي إلى المدينة، وهي أفضل دروَازه[٦]. كما أضاف مسجداً ضخماً عند الطرف الشمالي من الجسر الجديد، وهو مسجد أفضل غنج، الذي اكتمل تشييده كما يبدو عام ١٨٦٨[٧]. كما ينسب إليه إعادة تأهيل مجمّع القصر، تشاو محل، بالرغم من أنه يصعب على وجه الدقة تحديد تاريخ ذلك في خلال فترة حكمه الذي دام اثني عشر عاماً[٨].

لا نجد في سجلات نظام دليلاً معاصراً يظهر القصد من تشييد تلك المباني[٩]. لكن في عصر كان يُنظرُ فيه إلى العمارة من زاوية قوتها الرمزية، ليس من المفاجئ بالتالي أن يجذب القصر والمسجد اهتمام مصادر القرن التاسع عشر المتأخرة. جعل أفضل الدولة قصره، تشاو محل، نسخة من قصر الشاه في إيران؛ ومن مسجده، مسجد أفضل كنج، نسخة لافتة عن مسجد أولى السلالات المسلمة الحديثة التي حكمت

---

(٥) سجلات فرايزر في ٥ تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٦١، أقام نظام الدربار في خلوات وقدم المندوب السامي البريطاني هدايا باسم الملكة، من بينها شطب دين وإعادة مقاطعتي رايشور دارايبو، وهدية من ٣٠٠٠٠ روبية قدّمت كذلك إلى شمس العمرة وسالار جنغ. انظر: المصدر نفسه، ص ٣١٥.

(٦) «في حزيران/ يونيو ١٨٦١، [١٢٧٧هـ] اكتمل بازار وجسر إلى نهر موسى في حيدر أباد تحت أوامر حكومة نظام وبتكلفة ١٣٠٨١٣ روبية. نظام الحالي، أفضل الدولة، نظام الخامس، بدأ عهده بالأمر بتنفيذ هذه المشاريع». انظر: المصدر نفسه، ص ٣٢١.

لكن لا ذكر لها في سجلّات نظام الرسمية.

(٧) كانت تنسب باستمرار. ما من دليل خارجي يؤكّد هذا التاريخ، لكن يمكن أن يكون هناك بناء غُطِّي الآن بأشغال حديثة هو عبارة عن بناء من طابقين بالخرسانة يحيط بالباحة، ويحجب مع الأسف واجهة المسجد الأصلية. تكلفة الرعاية كانت ١٠٠٠٠٠ روبية، لاك واحد.

(٨) تسمية المحال إلى الجنوب، أفضل محل، وإلى الشمال، تهنتة محل، في المجمع التذكاري لنظام الخامس، مير تهنتة علي خان، أفضل الدولة، آصف جاه الخامس. وهذا يعطي الحجة حول دوره كراع، المأخوذة من نص لبيلغرامي، انظر: S. Bilgrami, *Historical and Descriptive Sketch of His Highness the Nizam's dominions* (Bombay: [n. pb.], 1883-1884).

والتي تدّعي أنه هو من أمر بترميم القصر.

(٩) ليس هناك من دليل أنه كان لأي رسمي بريطاني معاصر أي دور في مشاريع الرعاية تلك. ولو كان هناك من اهتمام من الراج البريطاني أو أي وكالة تمثله أو مقيميه في التنظيم المدني أو رموز السلطة لوجب أن تكون مسجلة. هناك توثيق لاهتمام بريطاني بترميم أضرحة غولكوندا في مقابر المدينة القديمة.

حيدر أباد، وهي قطب شاه (١٥١٨ ـ ١٦٨٧)[١٠]. إلا أن ذلك، وفي كلا الحالتين، هو في أحسن الأحوال نصف الحقيقة فقط. صحيح أن ميزات المبنيين تشترك وميزات مبان أخرى تعود إلى أزمنة وأمكنة أخرى، غير أنها ليست نسخاً عنها في أي حال من الأحوال. فالتفكير بهذه الطريقة يخفي فرضية أن نظاماً في منتصف القرن التاسع عشر لم يكن يمتلك غير القليل من الطاقة الخلاقة، وأن الرؤية «الإسلامية» إنما تركّزت في قرون أخرى ودول أخرى[١١]. وقد آن أوان إعادة النظر لا في المباني نفسها فحسب، وإنما أيضاً في المنظار الذي يجري تفحّصها من خلاله.

ما أقترحه، هو أن مباني نظام الخامس قد استخدَمت بوعي تراثَ المدينة المعماري، وأنها كانت تؤشّر بقوة إلى الذاكرة الثقافية التي ينطوي عليها الشكل المديني. ونظراً إلى أن أفضل الدولة قد حكم في زمن اتسم بالتحول السياسي، فقد شدد على مواقع ذات فاعلية رمزية في الشكل المديني وعلى نحو يسترجع اللحظات الرئيسية الأولى في التاريخ السياسي لدولة الدَّكَن. يمثّل تشاو محل، المشيّد عام ١٥٩٥، تاريخ تأسيس المدينة، مظهر الرؤية المدينية لسلالة قطب شاه الدكّنية، غير المغولية. وقصر تشاو محل هو أحد أقدم القصور التي امتلكها مؤسسو سلالة آصف جاه، وهو يرمز إلى تأسيس وجود السلالة في المدينة. فالمقصورات الفردية التي أعاد أفضل الدولة ترتيبها في تشاو محل إنما هي تصاميم مأخوذة من المقر البريطاني، وهو معلم تاريخي تم شيْده في منقلب القرن التاسع عشر ومثّل في آن معاً تأسيس الحكم البريطاني ونهاية الاستقلالية الكاملة لآصف جاه. كان مسجد أفضل غنج مبنى حديثاً، إلا أنه صمم ليكون إحياء تاريخياً لمسجد قطب شاه الأولي داخل مجمّع آصف جاه العصري، واستخدم كسائر مشاريعه ليلعب على قوة المعالم العمرانية التاريخية في التمثيل الرمزي للهويات الجمعية. لقد خدمت هذه الأشكال كعلامات بارزة لسلطتين منفصلتين ومتعاقبتين حكمتا الدَّكَن: قطب شاه، وآصف جاه، في جو التهديد البريطاني الضاغط. أعادت رعاية أفضل الدولة ترجمة رمزية كل ذلك، دامجة الهويات السابقة المنفصلة ومنتقية معالم تستطيع استرجاع بنية خريطة الأصول التاريخية والتحولات الكبرى التي قادت منطقياً إلى تشكيل هويته الجديدة كأمير لدولة حيدر أباد.

---

(١٠) حول تشاو محل، انظر: «Char mahal,» in: A. Claude Campbell, *Glimpses of the Nizam's Dominions: being an Exhaustive Photographic History of the Hyderabad State, Deccan, India* (Bombay: [n. pb.], 1898).

حول جامع أفضل، انظر: *Syed Bilgrami, Historical and Descriptive Sketch*, p. 581.

(١١) كان قصره يشبّه بشيء من ألف ليلة وليلة.

كانت إحدى أهم استراتيجيات نظام الخامس التخفيف من قوة الحكم البريطاني، وزيادة قوة سلطته هو، من خلال السيطرة على الماضي وبناء هوية جديدة للسلالة الحاكمة. لكن لفهم أفق عمل هذا الراعي الأميري، يجب عدم النظر إلى مشاريع أفضل الدولة كمعالم منفصلة، وإنما كتنظيم مدني متكامل وإبداعي.

أحيت أعمال أفضل الدولة الجديدة حضور السلطة التي يرمز إليها الإرث الثقافي في تعبير جديد عن هوية آصف جاه السياسية التي غيّرت انتسابه من المغول إلى زعم جديد بامتلاك جذور في الدَّكَّن. كما أن وضعه تلك المباني في تسلسل خطّي جديد أعاد تأطير المواقع التي رمزت إلى التنافس بين السلطتين البريطانية والحيدر أبادية المتنافستين في دبلوماسية أوائل القرن التاسع عشر. وما تصميمه لثلاثة مشاريع بناء رئيسية إلّا إعادة تشكيل للمكان المديني، بهدف التأشير إلى تراتبية سياسية مستقبلية للسلطة في حيدر أباد، حيث نظام هو رأسها بوضوح. تلاعب أفضل الدولة بالمكان والشكل ليمثّلا معاً المقيم البريطاني ووزير نظام كليهما ـ جاعلاً نفسه وسيطاً قوياً بين هاتين السلطتين السياسيتين المتعارضتين، المرتبطتين بالمركز الملكي بطرائق مختلفة.

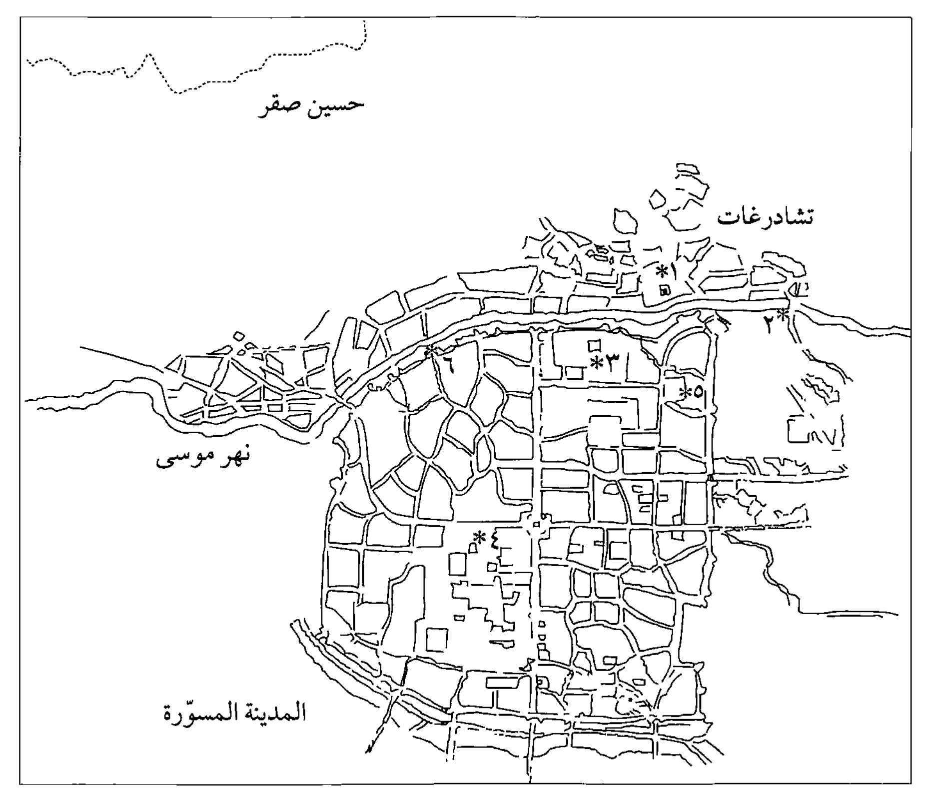
هكذا، عمل التصميم على تقديم تاريخ جديد لهوية سياسية جديدة. كانت العلاقات الشعائرية بين المباني تعبّر على نحو سردي عن هويته الجديدة من خلال الطريقة التي جرى فيها تنظيم المواقع التاريخية في ممار طقسية جديدة لدبلوماسية آصف جاه ـ بريطانيا. استخدمت رعايته المعمارية، في آن معاً، العملياتِ والرموزَ التي كانت تتصل بصورة واضحة بالتقاليد في العالم الإسلامي والتي جرى تصويرها بميزان مديني. وحين يجري تحليلهما معاً، في سياقهما المديني، سيتضح أنهما هدفا برأيي إلى تقديم تنظيم مدني غيّر من مدينة مغولية وفق التصور الاستعماري ليجعلها عاصمة دولته الأميرية الحديثة.

ثانياً: «النظاميون»، البريطانيون، وسياسات الهوية المغولية قبل عام ١٨٥٧

بدت حيدر أباد في أوائل القرن التاسع عشر، من فوق، مثل أي مدينة استعمارية (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ١)). وبالرغم من أن المدينة لم تكن مستعمرة، فقد أنشئ معسكر عند الضواحي الشمالية للمدينة بعد التوقيع عام ١٧٩٨على التحالف الملحق

الذي يضمن بقاء جيوش بريطانية «لحماية» حيدر أباد[١٢]. وبين عامي ١٨٠٣ و١٨٠٨، بُني قصر رسمي ضخم كان بمثابة مركز إداري بريطاني عند طرف المدينة الأصلية المسوّرة. وما عناه المعسكر بالمفردات العسكرية، أكّده المقر سياسياً؛ فقد دخلت المدينة في نظام سياسي مشترك بين المقيم والحاكم، وهو ما ميّز نظام استعمار أطراف الهند في القرن التاسع عشر[١٣].

الرسم الرقم (٢٤ ـ ١)
المراكز الدبلوماسية قبل العام ١٨٥٨



١ ـ المقر البريطاني في تشادرغات؛ ٢ ـ جسر تشادرغات ١٨٣١؛ ٣ ـ ديوان ديودي؛ ٤ ـ قصر نظام في موتيغالي؛ ٥ ـ حويل بوراني؛ ٦ ـ بوابة دلهي.

خريطة المدينة استناداً إلى شغل س.بي. شوري على «خريطة حيدر أباد وإسكندر أباد حوالى العام ١٨٤٥ ميلادي» من المجموعات المنشورة حديثاً لشاه منصور علم.

---

(١٢) انظر: Sarojini Regani, *Nizam Britsh Relations, 1724-1857* (Hyderabad: [n. pb.], 1963).

(١٣) مثل مقار أخرى، كلاكنو.

شكّل المقر في صورته ووظيفته تمثالاً لتأسيس السلطة البريطانية في حيدر أباد (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ٢)). فالقسم الخارجي، بسلّمه الضخم الموصل إلى رواق كلاسيكي مجدد، يشبه إلى حد بعيد المبنى المركزي لقصر نائب الملك في كالكوتا، مقر الحكومة، الذي ارتكز بدوره على قصر كدلستون في إنكلترا[١٤].

الرسم الرقم (٢٤ ـ ٢)
المقر البريطاني في تشادرغات، الواجهة الشمالية



المصدر: Claude Campbell, *Glimpses of the Nizam's Dominions: Being an Exhaustive Photographic History of the History of the Hyderabad State, Deccan, India* (Bombay: [n. pb], 1898).

(١٤) Sten Nilssen, *European Architecture in India, 1750-1850* (New York: Faber and Faber, 1968), pp. 101-104.

وبمفردات إمبراطورية، كان الطابع الصرحي لهذا النسق المعماري لمبانٍ مشابهة للأصل البريطاني عملاً سياسياً قوياً من الدرجة الأولى يجلب الإرث الثقافي الأرستقراطي الذي أرساه الإنكليز في القرن الثامن عشر ليحكم توسّع السلطة البريطانية في الهند[١٥]. وكما لو كان تأكيداً على ارتباط مبنى المقيم بالجغرافيا الثقافية للهند البريطانية كان هذا المبنى موجهاً ناحية الشمال باتجاه معسكر الجنود الذي تقوده بريطانيا المتمركز في معسكر إسكندر أباد الجديد، وشمالاً عموماً باتجاه مقر السلطة البريطانية أي كالكوتا.

كان لمدينة حيدر أباد القديمة عدة طبقات متنوعة من التاريخ السياسي الهندي ـ الإسلامي المطمور في مبانيها[١٦]. كانت المدينة مسلمة في الأساس من حيث ديمغرافيتها وإسلامية من حيث تنظيمها المديني وإرثها الهندسي. كما كانت مدينة مخططة تم تأسيسها عشية ذكرى الألفية الإسلامية في عام ٩٩٩هـ/ ١٥٩١م على يد قطب شاه، وهي سلالة حاكمة مسلمة شيعية من الدِّكّن تمكّنت الجيوش المغولية من التغلب عليها في القرن السابع عشر[١٧]. تم دمج المدينة بعنف بالإمبراطورية المغولية كعاصمة إقليمية بينما بدأت تلك الإمبراطورية بالتفكك. تلا ذلك نصف قرن مضطرب من صراعات سلطة ما بعد المغول أعلن خلالها الحاكم المغولي نظام الملك، آصف جاه الأول، استقلاله عن دلهي عام ١٧٢٤. وفي عام ١٧٧٠، اعتمد خلفه نظام الثاني حيدر أباد كعاصمة لسلالته بالرغم من اختياره العودة إلى طلب دعم الإمبراطور المغولي بالاسم للشرعية السياسية.

استخدمت سلالة آصف جاه في القرن الثامن عشر، بوصفها سلالة حاكمة خليفة للمغول لا تزال مرتبطة بشدة بدلهي، مجمعات القصور ذات التصميم المغولي لطقوسها السياسية السابقة. تألفت قصورها من سلسلة طولية من أفنية خاصة متزايدة تؤدي إلى أجنحة قصر فردية. إن التصميم المغولي من جِلو خانة إلى خلوت خانه قد حدد مركزه الملوكي في منطقة موتيغالي الواقعة جنوب غرب المدينة المسوّرة. وفي القرن الثامن عشر كانت المدينة المسوّرة مركز الجغرافيا المدينية وكان مركز قوة نظام بالفعل مشرعاً من خلال وضعه إلى جانب مسجد جامع في المدينة، مسجد

(١٥) «بالتأكيد ليست مصادفة أن المقر في حيدر أباد يسترجع بالتفصيل كما في الصورة المعمارية العامة بيت الحكومة الحديث في كالكوتا،» في: المصدر نفسه، ص ١١٣ ـ ١١٤.

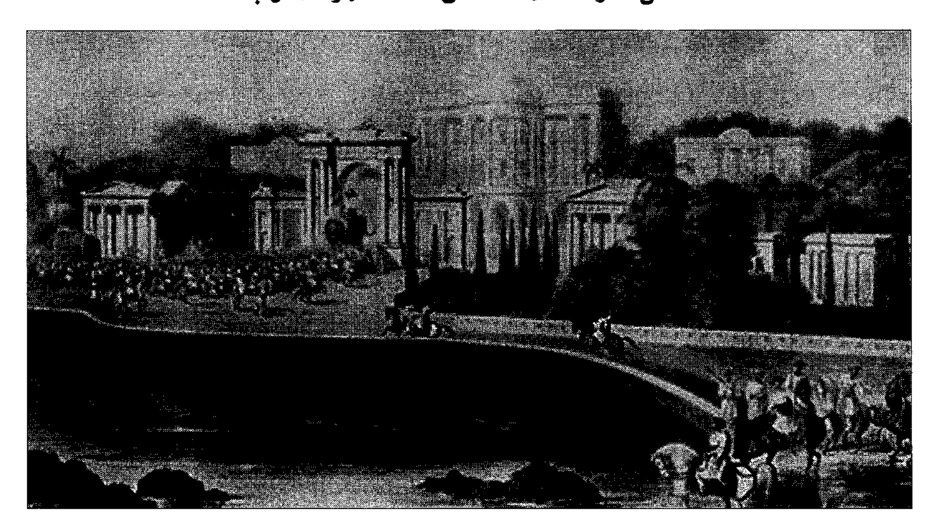
(١٦) جرى بناء المقر وضاحيته في تشادرغات كحي للمصرفيين والمهاجرين الذين كانوا تحت رعاية وحماية بريطانيا.

(١٧) Anon, *Notes on the Hyderabad Residency* ([n. d.]), p. 5.

مكة حيث كانت تقرأ الخطبة باسم الإمبراطور المغولي الذي استمرت سلطته الثقافية باستعماله اللقب الملكي على النظامين المستقلين القائمين فعلاً. ولكن إنشاء المقر البريطاني في بداية القرن التاسع عشر أعاد تشكيل القوى المحركة للمساحة المدينية المغولية هذه.

بينما شكّل دار المندوب السامي بصرياً معلماً يمثل السلطة البريطانية في المنطقة، فقد تم تخطيطه لينضم أكثر فأكثر إلى سردية أوسع لهوية محلية من خلال موقعه في المدينة، عبر الشعائر والجغرافيا. وبسبب اتجاه المبنى نحو الشمال، بينما تتجه حيدر أباد نحو الجنوب، كان دخول الزائرين وخروجهم من المجمّع يتم عن طريق ما يمكن اعتباره الجزء الخلفي من المبنى (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ٣))[١٨].

الرسم الرقم (٢٤ ـ ٣)
مدخل مقر تشادرغات من ضفة النهر (جنوب)



المصدر: R. M. Grindlay's Scenery, *Costumes and Architecture* (London: [n. pb.], 1826 - 1830).

كان الدخول إلى المجمّع من الجهة المواجهة لنهر موسى يعني أن الوصول إلى قاعة الدربار يقضي بضرورة تجاوز المرء جناح الحريم، والمطبخ أو مكاتب الخياطين

(١٨) ينحو البيت الحكومي في كالكوتا شمالاً أيضاً، ولأسباب مناخية على الأرجح. انظر: Nilssen, *European Architecture in India, 1750-1850*, pp. 114-115.
وجرى الاحتفال به من خلال البوابة الضخمة «المستعارة» من بوابة البيت الحكومي، زينت من البريتيش ليونز، وبنيت في حديقة المقرّ.

والغسّالين(١٩). ارتكز بلاط نظام على تقاليد المغول المتعلقة بالمحاور والنظرات، حيث المداخل والممار الرسمية سمات رئيسية في ممارسة السلطة السياسية(٢٠).

ومن خلال علاقة الشكل بالموقع، كان يمكن للصراع على السلطة السياسية بين البريطانيين والنظاميين أن يجري على مسرح ثقافي كما كان يجري في الساحات السياسية العلنية.

لم يشيّد النظاميون في أوائل القرن التاسع عشر أي مبنى جديد خاص بهم ليناظر الوجود البريطاني؛ بل ركزوا بدلاً من ذلك على التشريفات الشعائرية للسلطة في شكلها المديني. لقد تغيّرت هوية مدينتهم المسوّرة، إذ أصبح مجالها بأكمله جزءاً قابلاً للتحديد مادياً وثقافياً في جغرافية مدينية أوسع في الوقت الذي كانت المدينة تنمو باتجاه مختلف تماماً على الضفة الشمالية لتشادرغات(٢١).

باتت المدينة المسوّرة مرتبطة بالبلاط أكثر فأكثر، عبر أبنية ثقافية من الزمن الديني والسياسي. أما نظام الثالث ونظام الرابع فقد جعلا الدربار الخاص بهما، حيث تقديم النذور ومنح الألقاب أثناء إقامة الاحتفالات، وفق التقويم الديني الهندي ـ الإسلامي: عيد الفطر، وعيد الأضحى، والنوروز، واحتفال الباسانت الهندي(٢٢). كما أقاما عرضاً رسمياً مدنياً سنوياً في المدينة القديمة، موكب لانغار، في الخامس من محرّم، مرتبطاً بالطقوس الشيعية التي تحيي ذكرى عاشوراء بعد خمسة أيام(٢٣).

---

(١٩) المصدر نفسه، ص ١١٥.

(٢٠) Gulru Negopoglu, «Framing the Gaze in Ottoman, Safavid, and Mughal Palaces,» *Ars Orientals*, vol. 23 (1993), pp. 303-326.

ويمكن ملاحظة استمرار التقليد المغولي من خلال تنظيم القصور في حيدر أباد تحت الحكام المغول في غولكوندا، نو محل، وفي المدينة القديمة مجمّع جِلو خانة للنظام، كما في استمرار دربار المغول وتنظيمهم الرسمي للمكان.

(٢١) Alison Mackenzie Shah, «Mapping Space, Mapping Identity: Imagining Hyderabad's Walled City in the 19th century,» *Marg*, vol. 56, no. 1 (2004), pp. 50-60.

(٢٢) يقوم هذا على احتفالات البلاط المغولي كما الدُّكّني ويتضمن أعياد المسلمين المهمة كما النوروز الفارسي والباسانت (الربيع) الهندي. انظر: S. Naqvi, *Muslim Religious Institutions and their Role under the Qutb Shahs* (Hyderabad: [n. pb.], 1993).

هذه الاحتفالات كانت تجري تحت حكم عدّة حكام وسلالات، لكن نظاميي القرن التاسع عشر كانوا أوّل من أقام تلك الاحتفالات المختلفة معاً.

(٢٣) ينبع هذا الاحتفال من وعد قطب شاه لمير عالم، لكن تنفيذ الاستعراض من أجل «سلامة التاج» كان اختراعاً من آصف جاه. انظر: Alison Mackenzie Shah, «Constructing a Capital on the Edge of the Empire: Politics and Urban Patronage in the Nizams' Hyderabad, 1750-1950,» (Ph.D. Dissertation, University of Pennsylvania, 2005). =

ومن خلال هذا الدمج بين الروزنامتين الرسمية والدينية، ضم نظام الثالث ونظام الرابع الإيقاعات الثقافية لحياة المدينة القديمة إلى التشريفات الاحتفالية للسلطة الملكية[٢٤]. وفي حين نجحا بنسج البلاط مع الحياة المدينية، فقد ساعدا أيضاً على رسم حدود سلطة «نظام» في جغرافية مادية، حيث الطقوس والاحتفالات كانت ترتبط أساساً بالتقويم الإسلامي.

وبدأت أسوار المدينة وضفة النهر الجنوبية بفرض الحدود الثقافية للسلطة المتهاوية لـ «نظام». وبالرغم من تزايد قوة الوجود البريطاني في الدِّكَّن في أوائل القرن التاسع عشر، فقد ركّز النظاميون من وجهة دفاعية على الاحتفالات السياسية المغولية لتقليص الوجود البريطاني رمزياً، ومن خلال عمليات دبلوماسية داخل الجغرافيا المدينية الأوسع للمدينة.

أقام نظام الثالث (١٨٠٣ ـ ١٨٢٩) ونظام الرابع (١٨٢٩ ـ ١٨٧٥) وعلى نحو شعائري، درباريهما وجمهورهما واستقبالاتهما، في عدة قصور مدينية، مثل حويل مانجلي بيغُم، وقصر خوابغاه، وقصر رغمالا، وروشان محلّ، ومحال أخرى داخل المركز الملكي وحوله، فضلاً عن قصور نبلاء المدينة وحويل بوراني، وهو قصر تم شراؤه في الحي الشيعي القديم بالقرب من منزل مير عالم[٢٥] (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ١) #٥). وهما غالباً ما تركا المدينة المسوّرة لتمضية الوقت وإجراء مقابلات في حدائقهما الخاصة في ضواحي المدينة، ولكنهما نادراً ما غادرا المدينة لزيارة مقر تشادرغات ـ وهي مهمة تركت لممثلهما الدبلوماسي، الوزير.

جرى إظهار الصلة المغولية بصورة واضحة ليس بالشعائر الشعبية فقط، وانما بالمواكب أيضاً. فقد اعتاد نظام الثالث مغادرة المدينة إلى دلهي درْوَازه (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ٤))، في مناسبات سياسية ـ لتلقي الفرمانات من دلهي، أو لزيارة دار المندوب السامي البريطاني، أو لمرافقة مندوبٍ سامٍ جديد إلى قصر نظام[٢٦].

= لإعطاء تعريف حول لانجار، انظر: Central Records Office, *Chronology of Modern Hyderabad, from 1720-1890* (Hyderabad: [n. pb.], 1954), glossary, 8-9.

(٢٤) احتفل النظاميون بأربع دربارات في السنة كانت تقدّم النذر خلالها إلى نظام، والألقاب إلى الحاشية، أعياد الأضحى، الفطر، النوروز، والباسانت لاحقاً. انظر: المصدر نفسه، ص ٣.

(٢٥) المصدر نفسه، ص ١٦٥، ١٦٩، ١٩٤، ٢٤١-٢٤٣، و٢٤٦-٢٤٧.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ١١٧، ١٢٢ و١٧٦.

كانت دلهي درْوَازه بوابة تقع على مسافة ما من دار المندوب السامي وتتطلب خوض نهر موسى على ظهور الأفيال (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ١) #٦)[٢٧].

الرسم الرقم (٢٤ ـ ٤)

بوابة دلهي



المصدر: Campbell, Ibid.

كان المسار غير مباشر على نحو واضح، ويبدو أنه اختير في الأساس لاتجاهه الرمزي نحو دلهي المغولية. كان يجري التفاوض على تخم المدينة ـ ذلك المكان الانتقالي الحساس الذي يفصل مدينة «نظام» القديمة عن الضاحية البريطانية في

(٢٧) «دلهي درْوَازه،» في: المصدر نفسه، كرونولوجي، ص ١١٧ (٢٠ أيار/ مايو ١٨٠٨).
تسمية البوابة كدلهي درْوَازه عبر شبه القارة نحو دلهي العاصمة الإمبراطورية. مدخل تشادرغات إلى النهر، وموكب نظام من الشرق يظهر في: R. M. Grindlay's Scenery, *Costumes and Architecture* (London: [n. pb.], 1826-1830).

تشادرغات ـ وعبر دلهي، التي كان عليها أن تحمل السلطة الرمزية للعاصمة المغولية الشمالية، وليس عبر المسؤولين البريطانيين المحليين في المنطقة المجاورة. وبعد زيارة دار المندوب السامي، كان نظام يكمل طريقه إلى ممتلكاته الخاصة الواقعة وراء المقر في حلقة الصيد الملكي وملكيات الحدائق المحيطة بالمدينة[٢٨]. لم يعتبر نظام قط المقر البريطاني وجهته الأخيرة، بل كان مجرد محطة في جغرافية ثقافية أوسع لممتلكات السلالة المغولية الحاكمة.

بقي دار المندوب السامي موقعاً لرمزية سياسية ملتبسة، إذ لم يزر نظام الثالث (١٨٠٣ ـ ١٨٢٩) هذا المقر إلا مرة واحدة فقط. وعندما حدث ذلك، جاء التفاعل غامضاً كغموض عملية بناء بيان القوة. فقد قدّم البريطانيون إلى النظام كـ «نذر» العناصرَ التي يمكنه بواسطتها تنفيذ الدربار بالأسلوب المغولي، مع جواهر وملابس مطرّزة بالذهب. غير أن نظام لم يقدّم في المقابل شيئاً إلى المقيم أو المسؤولين البريطانيين الموجودين، بل أخذ على العكس الجواهر المقدّمة إليه ومن ثم منحها كهدايا لرجال حاشيته المرافقين له. تروي المصادر طبيعة علاقات القوة بين نظام والبريطانيين في شكلية الصراع على السلطة من خلال الاشتراك الرمزي لرجال حاشية نظام، لكن الاحتفال لم يخرج ليشمل الرسميين البريطانيين.

كانت مساهمة نظام الرابع (١٨٢٩ ـ ١٨٥٧) أكثر جوهرية في شكلية علاقات القوة بين القصر والمقر البريطاني. فبعد سنوات من خوض البريطانيين للنهر الضحل على ظهر الأحصنة من أجل الوصول إلى المدينة لإجراء مقابلات مع وزراء وممثلين، منح نظام الرابع إذناً لبناء جسر عام ١٨٣١ يربط بين البوابة الخلفية للمقر والضفة الجنوبية لنهر موسى خارج الأسوار باتجاه شرق المدينة (الرسم الرقم (٢٤ ـ ١) #٢). وقد عزز ذلك التوجه السياسي لدار المندوب السامي. قدّم هذا الجسر طريقاً عملياً باتجاه حيدر أباد رابطاً المركز البريطاني بالضفة الجنوبية للنهر على نحو مباشر ولكن غير مباشر إلى المدينة المسوّرة. وتطلب هذا المسار من المسؤولين البريطانيين دخول المدينة عبر بوابة تشادرغات مروراً بالأحياء السكنية للمدينة حيث تشكل الأسوار الخارجية المرتفعة المستوية لقصور المدينة والمحال المجاورة الصغيرة صفاً على طول الطريق. لم يكن هناك من جادة لمواكب كبيرة تدل على شراكة سياسية؛ كان طريق جسر تشادرغات أقرب إلى مدخل للخدام نحو المنزل المديني للنظام.

---

(٢٨) انظر: Central Record Office, Ibid., p. 117.
تسجل زيارة نظام للمقر واستكمال زيارته لعماد باغ نظام.

أثبت مقر المندوب السامي بوصفه رمزاً لاستمرارية القوة البريطانية في حيدر أباد أنه مبنى غير مرحب به من خلال اضطرار نظام إلى المناورة في سبيل ترسيخ هويته وإنشاء سلطته في مناخ سياسي غير مؤات مطلع القرن التاسع عشر. وليس من المفاجئ أن إحباطات نظام السياسية والمالية استمرت بالتفاقم حول المبنى، بحيث انتهى إلى حال من التدهور الخطير. أجريت عمليات ترميم أساسية للمبنى عام ١٨٢٦، غير أن المقيمين البريطانيين كان يزداد سخطهم لضرورة توسّل نظام للحصول على أموال من أجل ترميم قصرهم. عام ١٨٣٣، اقترح على نظام ترك مقر تشادرغات و«اللجوء إلى مقر أكثر تواضعاً يقع على مسافة أبعد من المدينة»[٢٩].

وقد تم شيد جناح أكثر تواضعاً في الجانب الشمالي لبحيرة حسين صقر في بولارم لأهداف إدارية. ومع ذلك، بقي مقر تشادرغات المهجور جزءاً مهماً من المدينة الناشئة ومثّل الوعد بالحكم البريطاني على المنطقة، الذي قدّم أمواله وضرائبه وجنوده لحماية جماعة نامية من المصرفيين البريطانيين والبارسيين والمرواريين الذين كانت قروضهم تموّل ـ أو على الأرجح تفلّس بشكل أدق ـ حكومة نظام. مع إضافة الحدائق العامة ذات الأسلوب الأوروبي عام ١٨٤٠ وانهاء شيْد كنيسة القديس جاورجيوس عام ١٨٦٠، طوّرت الضاحية نسيجاً مختلفاً جداً، إذ شيّدا وحضرا في قلب حيدر أباد، المدينة المسورة القديمة الواقعة في جنوب النهر.

مثّلت ضفتا النهر بشكل متزايد منطقتين ثقافيتين مختلفتين وسلطتين سياسيتين مختلفتين. لكن نوع الشعائر السياسية التي ربطت بين القصر الملكي والمقر في النصف الأول من القرن التاسع عشر هدفت أساساً إلى التشويش على علاقة التبعية بين نظام والبريطانيين، بحيث بات دور ديوان نظام كوسيط سياسي حاسماً. وبينما لم يكن مركز الوزير وراثياً، فإن عائلة مير عالم الممتدة كانت تتولى موقع الديوان خلال معظم سنوات القرن التاسع عشر[٣٠]. كما كان الوزراء ينجزون مهماتهم من قصرهم، ديوان ديودي، حيث نشأ جزء مركزي ثالث للسلطة في نظام القرن التاسع عشر السياسي ذاك (الرسم

---

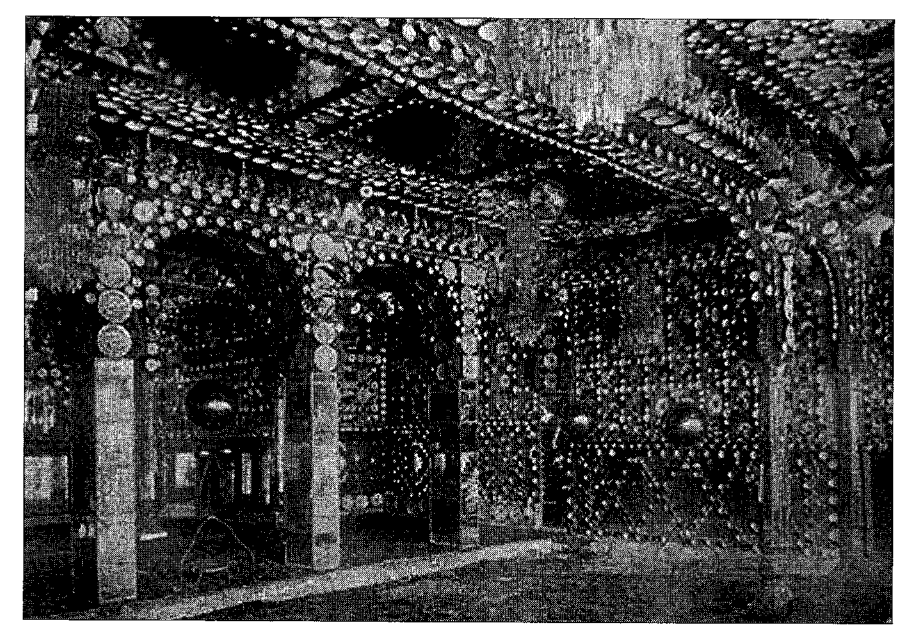
(٢٩) انظر: Anon, *Notes on the Hyderabad Residency*, p. 3.
الأسباب التي أعطاها لاقتراحه كانت تكاليف صيانة البناء الراهن، حيث إن قربه من المدينة جلب الفساد للعمال وعرّض السكان للخطر من الجنود، ثم يعتبره لاحقاً غير مرغوب أن يكون المقر قريباً جداً من بلاط جلالته.

(٣٠) مير عالم (ديوان، ١٨٠٤ ـ ١٨٠٨)؛ صهره منير الملك (١٨٠٩ ـ ١٨٣٢)؛ ابنه سراج الملك (١٨٤٦ ـ ١٨٤٨، ١٨٥١ ـ ١٨٥٣)، ابن أخته مير تراب علي خان، سالار جنغ الأول (١٨٥٣ ـ ١٨٨٣)، ابنه مير لايك علي خان، سالار جنغ الثاني (١٨٨٤ ـ ١٨٨٦)، ابنه مير يوسف علي خان، سالار جنغ الثالث (١٩١٢ ـ ١٩١٤).

الرقم (٢٤ ـ ١) #٣). وهذا يعني، كالبريطانيين ومعتمدهم، أن دور الوسيط بات مرتبطاً بمركز أوحد حصراً.

طوال مطلع القرن التاسع عشر، أعطي الشكل البصري للقصر موقعاً مركزياً في علاقات القوة بين حاكم حيدر أباد والمندوب السامي. ففي ثلاثينيات القرن التاسع عشر، عام ١٨٣٠، كافح الوزير منير الملك ضد رسميين آخرين في حيدر أباد لإنشاء الديوان، كقناة تواصل وحيدة بين المقيم والحاكم، وضم بعض المقصورات الخلاقة على نحو استثنائي. وضمت تلك قاعة تشيني خانة الشهيرة (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ٥)) التي غطّيت جدرانها وسقفها بفناجين وصحون إنكليزية مستوردة، وعينة خانة التي ملئت بمرايا مستوردة (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ٦)).

الرسم الرقم (٢٤ ـ ٥)
تشيني خانة، ديوان ديودي

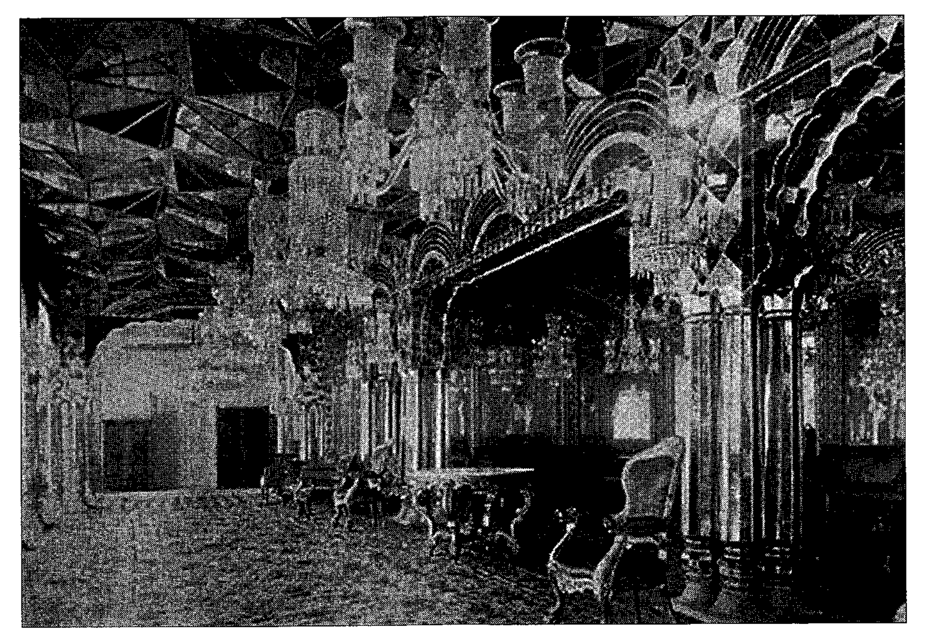


المصدر: المصدر نفسه.

وفي الأربعينيات، كان دور الوسيط كلياً في أيدي عائلته، وتأسس بالتالي دور ديوان ديودي كمركز للسلطة. وكانت القاعات، في عرضه لأشكال معمارية مدينية قديمة مليئة بسلع بريطانية، إنما تفصح عن الهوية السياسية الراهنة للأطراف المستعمرة.

وبفرض سلع مستوردة من شركات بريطانية في مقصورات حيدر أباد، فقد كانت تعبّر عن الطريقة التي جرى بها ملء سلطة نظام بمستشارين بريطانيين ومن خلال الوزير.

الرسم الرقم (٢٤ ـ ٦)
عينة خانة، ديوان ديودي



المصدر: المصدر نفسه.

مع انسحاب المقيمين البريطانيين من مقر تشادرغات وبعدما أوشك نظام على الإفلاس كلياً، خلا هذا الموقع على الأرجح من أي تعبير عن قوة حيدر أباد. وعليه غدا ديوان ديودي الخاص بمنير الملك مركزَ قوة مقترحاً للمدينة المسوّرة يتنافس فيه مع قاعات دربار نظام. أدى غياب الدربار والشعائر الطقسية إلى تعقيد فرص نجاح الميول القوية لاستمرارية سلطة نظام السياسية التي كان يصنعها من خلال تشكيل المكان المغولي والطقوس، وفتحت الطريق أمام سياسات ثقافية ومحلية طبعت الصراع المثلث على السلطة الذي غلب على المدينة في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

بحلول منتصف القرن التاسع عشر، بات للمدينة عدة معالم تمثّل علاقات القوة بين نظام، والمقيم، ووزرائه الوسطاء، التي أظهرت معاً وعلى نحو رمزي حدود سلطة آصف جاه السياسية. فالمدينة ببلاطها الهندي ـ الفارسي من جهة، وديوان ديودي

الخاص بالوزير من جهة أخرى، وضاحية تشادرغات بوافديها المصرفيين التجار من غير المسلمين، كان هؤلاء جميعاً وعلى نحو مرئي غير مترابطين ويمثلون صراعات السلطة السياسية التي فرضها وصول المقر البريطاني. ولم تكن مواقع السلطة تتباين بالاعتماد على مواريث ثقافية مختلفة فحسب، بل كانت منفصلة في شعائرها أيضاً، إذ كان لكل من نظام والمقيم طريق مختلف بين المواقع.

وليس من الغريب أن يكون نهر موسى قد أمّن حداً طبيعياً سهلاً حافظ على التمايزات الثقافية بين المدينة القديمة الإسلامية والضاحية الجديدة التي كانت تنمو في رعاية المقر البريطاني. وقد اعتقد المسؤولون البريطانيون المحليون وحاشية حيدر أباد بأن نظام قد يجثو أخيراً أمام الملحقية البريطانية كما فعلت دول أخرى في شبه القارة الهندية. وكما ذكر أحد المراقبين البريطانيين المحليين عام ١٨٢١: «إن إقامة تحالف معنا (البريطانيون) على النظام الفرعي سيؤدي على نحو محتّم إلى التدمير المطلق للدولة التي تشملها»[٣١].

ومع ذلك، تضمنت المواكب الشعائرية بين المواقع سردية للنظاميين كانت تهدف إلى تقليص موقع المقر كرمز لتأسيس السلطة الجديدة. وفي حين لم يحصل البريطانيون على أي وضع في ممارهم إلى مدينة نظام، تضمّن الموكب باتجاه المقر احتفالات مهمة ربطت نظام بدلهي المغولية، في الطرق فوق النهرية عبر بوابة دلهي، ودربار مغولية كانت تقام في المقر عندما يزورها نظام. ولأن المقر لم يلق وضع نقطة النهاية، فإن الشعائر السياسية التي ربطت بين هذه المواقع في النصف الأول من القرن التاسع عشر بقيت تشوش شعائرياً على أهمية البريطانيين وتنكر دور المقر كرمز في تأسيس السلطة البريطانية، وتحويله بدلاً من ذلك إلى موقع آخر لدربار نظام. وبحلول عام ١٨٤٠ أخلي المبنى، في الواقع، وتُرك عن قصد بحالة خراب ليكذّب بصرياً أي فكرة عن تأسيس سلطة بريطانية تشكّل بداية لسلطة سياسية قوية وصاعدة.

ثالثاً: أفضل الدولة والدولة الأميرية

عام ١٨٥٧ عندما اعتلى أفضل الدولة العرش ليغدو نظام الخامس، عكست الجغرافيا السياسية لحيدر أباد عدم الارتياح الذي تسبب به التحالف غير المرغوب

(٣١) H. Russell, *A Sketch of the Proceedings Connected with Certain Pecuniary Transactions of Mssrs, Palmer and Co. with the Government of His Highness the Nizam* (London: Allen and Unwin, 1825), p. 18.

فيه من أسلافه مع البريطانيين. فإضافة إلى رموز السلطة المدينية من مثل إعلان اسم الإمبراطور المغولي في الخطبة، ووضع الاسم على النقد المعدني، واستمرار شعائر البلاط المغولي في القصر، احتفظ النظاميون بالعديد من رموز السلطة التي تعود إلى الإرث الحديث المبكر والتي أصبحت ثقافياً جزءاً لا يتجزأ من مشهد السلطة المتغير بسرعة. عام ١٨٥٨، وبعد أن خلع البريطانيون آخر إمبراطور مغولي وأرسلوه إلى المنفى في بورما، استلزم الأمر إعادة التفكير في السلطة التي أوجدها النظاميون من خلال اعتمادهم شعائر الإرث الثقافي المغولي(٣٢).

وقد رد نظام أفضل الدولة ببيانات مرئية عبرت عن أيقونة جديدة لسلطة الدَّكَن الحديثة بمفردات هندية ـ إسلامية. لقد جرى ضمان سيادة الدولة على الشؤون الداخلية فقط، وارتكزت على استمرار دعم التاج البريطاني لها. استخدمت رؤية أفضل الدولة الإرث المديني ليعبّر في آن عن طبيعة الشراكة الإلزامية مع التاج البريطاني وعن استقلالية آصف جاه. وقد جرى إظهار هذه النقطة في خطاب ثقافي استند إلى تصميم فارسي للقصر، ومسجد، ومجموعة تقنيات بناء حددت هوية إسلامية حديثة.

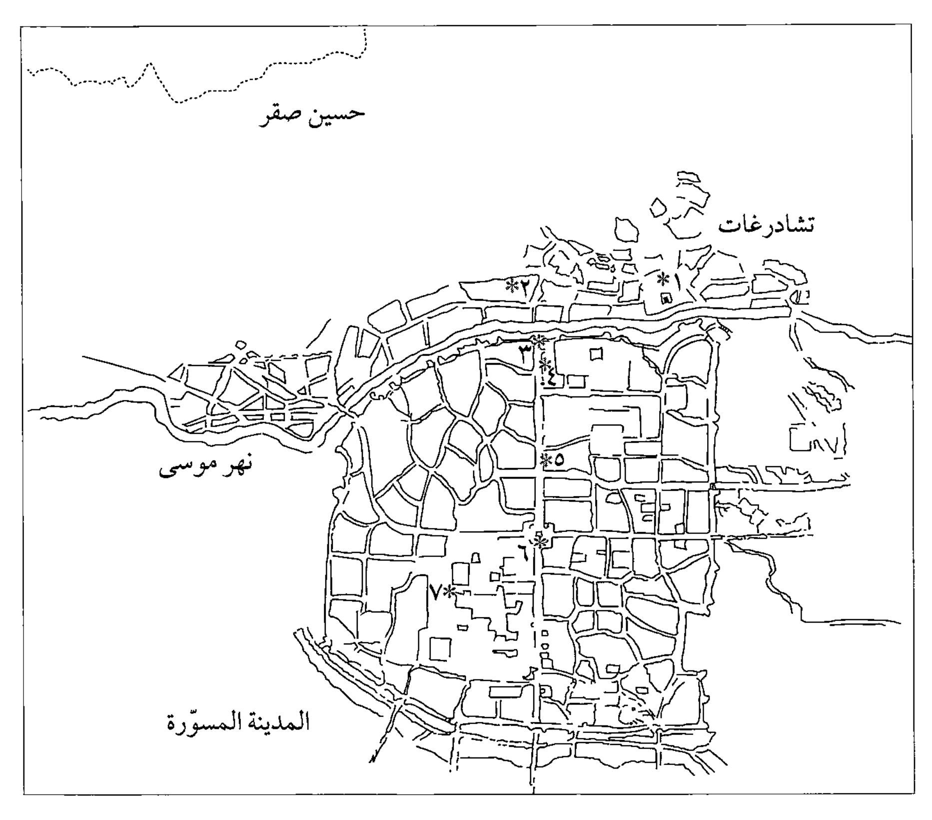
إن تركيز نظام الخامس على القصر والمسجد قياسي تقريباً، ولا سيّما في المباني القابلة لإظهار الحكام المسلمين سلطتهم السياسية منها على أولئك الذين يحكمونهم كما على نظرائهم. ومع ذلك، فقد شكل كلاهما مع الجسر بنية مدينية، مجذرة محلياً، وقوية، تعكس صورة الحاكم وتؤكد موقع المدينة العاصمة كرمز لهوية نظام. لم يعلن القصر والمسجد والجسر عن مستقبل جديد للسلالة الحاكمة فحسب، بل اقترحت ماضياً جديداً أيضاً، مضيفة معالم جديدة غيّرت دفعة واحدة تراثَ السلالة وأعادت كتابة أدوار المعالم المبكرة للسلطة السياسية عبر وصلها وربطها معاً بطرق جديدة(٣٣)؛ ووحّدت، في الوقت عينه، المدينة الكبرى ـ المدينة المسوّرة وضواحيها الشمالية ـ بصورة أوضح في ظل نظام، وسلطته الثقافية الهندية ـ الإسلامية، بإنشاء مواقع نقلت رموز السلطة من ضفة في النهر إلى الضفة الأخرى (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ٧)).

(٣٢) كان البريطانيون سريعين في التكيّف مع التراث الثقافي المغولي كهوية لهم. انظر: B. Cohen, «Representing Authority in Victorian India,» in: Eric Hosbawn and Terence Ranger, eds., *The Invention of Tradition* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1983), pp. 165-210.

(٣٣) ارتبط قصر تشاو محل وتطور مجمع مسجد أفضل غنج بقوّة تحت مظلّة الرعاية التي شكّلت المدينة في بعثها من جديد كمقرّ لسلطة سلالة قوية. سابقاً، كانت الرعاية جزئية، غير أن أفضل جلب مجمعاً مخططاً وسردية كاملة من خلال المكان وحركة شعائرية مع ارتباط بالأجزاء المدينية: جرى تخيّل المدينة كوحدة موحّدة تحت رعايته.

الرسم الرقم (٢٤ ـ ٧)

المراكز الدبلوماسية بعد ١٨٦٨



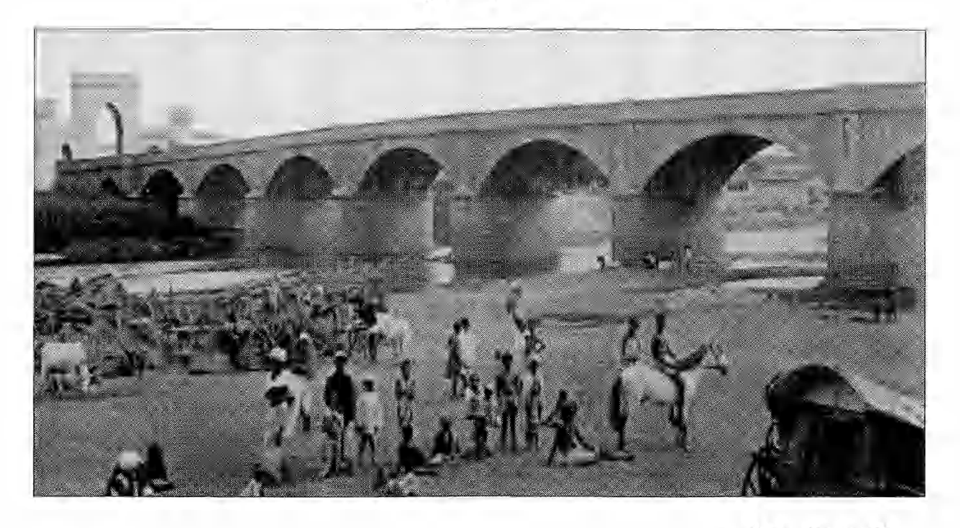
١ ـ المقر البريطاني في تشادرغات؛ ٢ ـ مسجد أفضل غنج؛ ٣ ـ جسر أفضل/ بوابة أفضل؛ ٤ ـ مدخل ديوان ديودي؛ ٥ ـ تشار كمان؛ ٦ ـ تشار مينار؛ ٧ ـ قصر تشاو محل.

خريطة المدينة استناداً إلى شغل س.بي. شوري على «خريطة حيدر أباد وإسكندر أباد للعام ١٨٤٥ ميلادي»، من المجموعة المنشورة حديثاً لشاه منصور علم.

جاء أولاً بناء جسر جديد. فبالرغم من نمو المدينة المسورة باتجاه الشمال بقيت المدينة المسورة مستقلة، بجادتها الشمالية ـ الجنوبية الأساسية التي تنتهي عند ضفة النهر، وجرى ربط الضواحي الشمالية بالمدينة فقط عبر جسر تشادرغات في الشرق والجسر القديم، بورانا پُل، بعيداً باتجاه الغرب. تمثّل المشروع الأول لأفضل الدولة بتوسيع الجادة المركزية للمدينة إلى داخل الضواحي الشمالية، واضعاً بهذه الخطوة التصميم المتصالب الأصلي المزدوج للمدينة الحديثة المبكرة المخططة إلى الجنوب من النهر مع تطور المدينة في القرن التاسع عشر على الضفة الشمالية (الرسم الرقم

(٢٤ ـ ٧) #٣). نقل توسيع الجادة الشمالية ـ الجنوبية الأساسية للمدينة الجغرافيا المدينية من مركز هندي ـ إسلامي أقدم ومن منطقة جديدة معزولة خاضعة للاحتلال ومعادية لحكومة نظام إلى تكامل مركّب، وحتى طبيعي، لوجهي التطور المديني (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ٨)).

الرسم الرقم (٢٤ ـ ٨)
جسر أفضل



المصدر: المصدر نفسه.

واستلزم توسيع الجادة إلى جسر إنشاءَ بوابة جديدة في سور المدينة؛ فأصبحت بوابة أفضل الضخمة الجديدة (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ٩)) الواقعة عند الطرف الجنوبي للجسر نقطة العبور بين المدينة المسورة بإرثها الهندي ـ الإسلامي الذي يعود إلى عدة قرون والضاحية الجديدة بطابعها غير المغولي وغير الإسلامي بلا جدال. وشجع إنشاء أفضل الدولة لسوق حبوب، أفضل غنج، على الجهة الشمالية للجسر نموَ قطب تجاري من شأنه تأمين النشاط الاقتصادي هناك، بحيث غدا التوسع من المدينة القديمة عبر هذا الممر الجديد من دون خط أمراً لا نظير له.

إذا كان الجسر قد أرخى ظل نظام على المدينة والضاحية الشمالية، فهو قد ردد أيضاً صدى منح هوية رمزية جديدة للمقر. فمن جهة، عرّف الجسر، مكانياً، بالطبيعة الطرفية للمركز البريطاني، الذي أصبح الآن على مسافة أبعد من قمة الجسر الجديد، ومركز

المدينة. لكن إذا كان الجسر قد أمّن الوضع الطرفي للمقر في الحياة المدينية لحيدر أباد، فهو قد دمج أيضاً وعلى نحو أوضح مقر تشادرغات بالجغرافيا السياسية. في أواخر ستينيات القرن التاسع عشر، شهد مقر تشادرغات نهضة كمركز رسمي للسلطة البريطانية. وبينما كان المقيمون لا يزالون يسكنون في بولارم فهم أحيوا الدور الرسمي لقصر الطراز البالاديوني الكبير وذلك يعود على الأرجح إلى اهتمامهم الخاص المتزايد بتعبيرات ثقافية ملائمة لسلطة إمبراطورية(٣٤). وبينما كان المسؤولون البريطانيون قد اتخذوا على الأرجح قرار العودة إلى مقرهم، خلق الجسر ممراً دبلوماسياً بين قصر نظام والمقر الذي بقي مركزياً في الاحتفالات السياسية حتى القرن العشرين. وثّق الجسر شعائرياً العلاقة بين الحاكم والمقيم وركزها بصورة أوضح على دولة حيدر أباد. وقد عبر مسؤولو بريطانيا ومسؤولو آصف جاه، بوابة أفضل بدلاً من بوابة دلهي أو جسر تشادرغات. أما الزوار من مقر تشادرغات فكانوا ملزمين أن يصلوا إلى مركز المدينة عبر جادة رسمية وحيدة.

الرسم الرقم (٢٤ ـ ٩)
بوابة أفضل، على الجسر



المصدر: المصدر نفسه.

(٣٤) عام ١٨٦٨ كتب المقيم تامبل أن «قاعة قد أنشئت في الطبقة العليا من المقرّ وأثثت للمناسبة بعد سنوات من عدم الاستعمال». انظر: Temple, *Journals Kept in Hyderabad, Kashmir, Sikkim and Nepal*, p. 139.

رمَز ممر نظام بين الموقعين إلى الهوية المشتركة بين السلطتين[٣٥]. ومن خلال التغيير في المسار الشعائري الذي يربط بين الموقعين، اختفت دلهي شعائرياً من تاريخ السلالة وهويتها، فأصبح أفضل الدولة بواسطة جسره وبوابته الرابط، بدلاً من العقبة، بين منطقتي عاصمة دولته الأصلية، كما أمّن الطريق الجديد من الجسر لنظام منفذاً إلى الواجهة الرسمية لقاعة الدربار الخاصة بالمقر واضعاً بالتالي حداً للطريق الخلفي أي المدخل من جهة النهر. بقي المقر مع ذلك ينهد صوب كالكوتا، غير أن أفضل الدولة ربط الآن واجهته الأمامية بالمدينة (وبقصره الجديد أيضاً) بشكل مباشر عبر طريق منعطف جديد، بحيث لم تعد كالكوتا وحيدر أباد رمزياً متقابلتين.

داخل الأسوار، سلّط استخدام نظام الجادة الشمالية ـ الجنوبية المحورية الواسعة في مركز المدينة، كطريق نافذ للتفاعل السياسي الرسمي، الضوءَ على ادعاء جديد بالأصول الثقافية للحاكم من خلال مباني حيدر أباد المدينية الأقدم. فلطالما كان النظاميون حكاماً لمملكة الدِّكَّن، لكنهم وجدوا منفعة أكبر في بناء هويتها كفلاحي إقطاع مغول. كما فصلت الآن شرعية نظام الخامس عن الشمال المغولي الميت. مع ذلك، كانت عاصمته قد تأسست كعاصمة لسلالة حاكمة من الدِّكَّن، وهي قطب شاه، التي حكمت حيدر أباد لمدة قرن، قبل أن تتغّلب عليها جيوش المغول عام ١٦٨٧. كانت هوياتهما مختلفة جداً. وبالرغم من أنهما كانا سلالتين حاكمتين مسلمتين، فقد كانت قطب شاه من الشيعة بينما كان النظاميون، كما المغول، من السنة. ومع ذلك، ففي رقصة تاريخية، بدّل نظام هويته من أجل الوقوف إلى جانب الجيوش المغولية الفاتحة، التي قدم في ظل وجودها سلفه آصف جاه الأول إلى حيدر أباد، لينضم إلى قطب شاه الدِّكَّن.

وفّر تأثير ربط الطريق المحوري بالجسر الجديد شمالاً رابطاً أقوى بين الضاحية والمدينة نفسها. فالدخول إلى المدينة المسوّرة عبر هذه الجادة الواسعة يمكّن المرء من أن يحدّق في طريق يُظهر سلسلة مبان شاهقة من أيام دور حيدر أباد كعاصمة مبكرة لدِكَّن (الرسم الرقم ٢٤ ـ ٧) #٥ و٦). عبر الزوار الجسر واتجهوا إلى الطريق الرئيسي محدّقين عن قرب تشار كمان الرائعة، وهي أربعة قناطر حجرية ضخمة رسمت تقاطع أربع جادات في المدينة الأصلية المخططة، التي جددها حديثاً أفضل الدولة عام ١٨٥٨ (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ١٠)).

---

(٣٥) لاحظ المقيم تامبل في تقرير حول إدارة حكومة جلالته نظام في الدِّكَّن، أن عدة طلبات رفعت لحكومة نظام من أجل إجراء تغييرات في المدينة، لكن لا شيء حول ربط المقر شكلياً بالمدينة. انظر: Calcutta (1868), chap. 7.

الرسم الرقم (٢٤ ـ ١٠)
تشار كمان

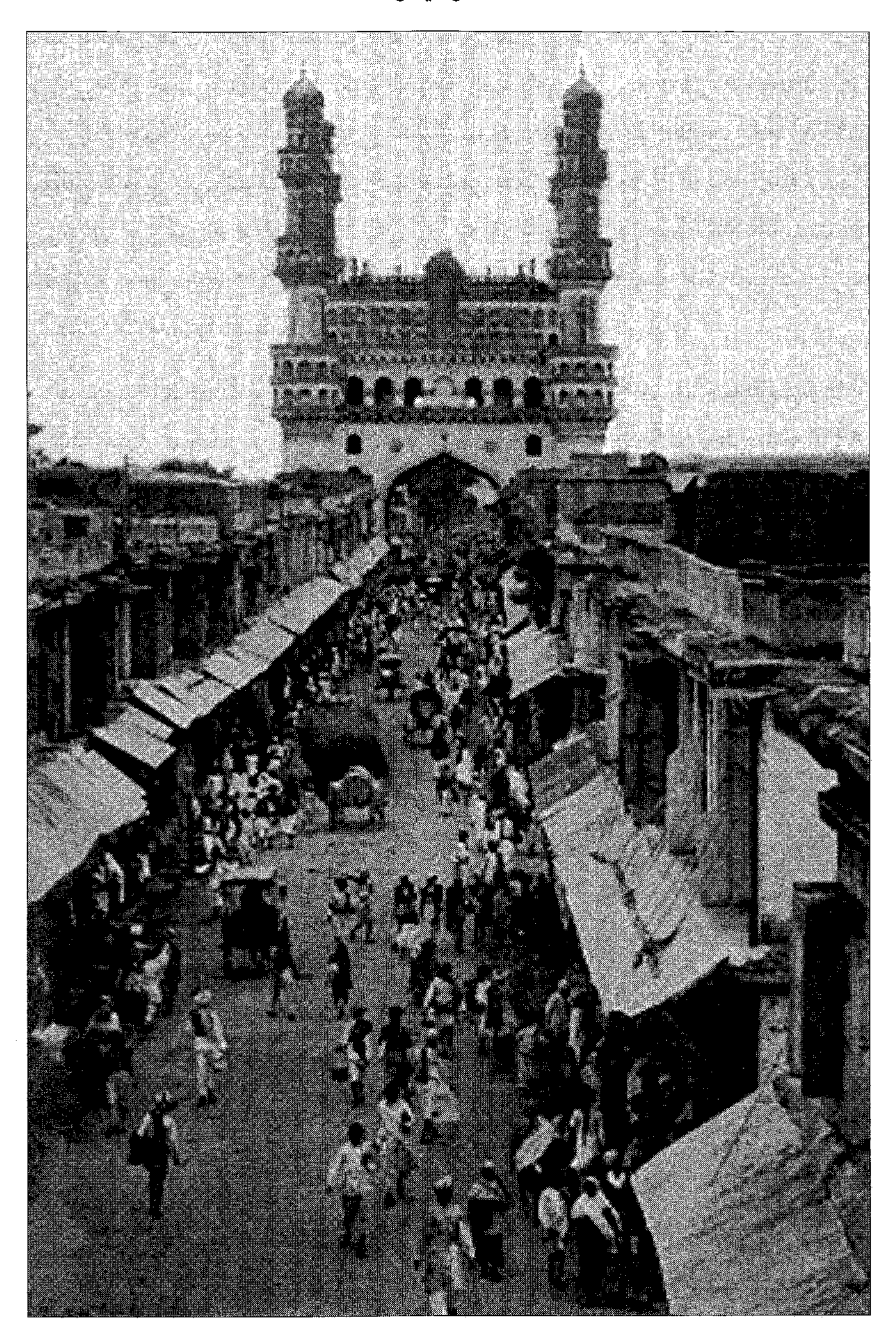


المصدر: المصدر نفسه.

وبعد عبورهم تلك القناطر، في وسعهم التقدم بمحاذاة المسجد الجامع (١٠٠١هـ) قبل الوصول إلى تشار مينار، معلم حيدر أباد الأكثر روعة، كذلك لجهة تشييده عام ١٥٩١، وهو ما ميّز التقاطع الثاني في الخريطة المتصالبة المزدوجة الأصلية للمدينة (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ١١)).

بعد المرور في محاذاة تشار مينار يتجه الزوار الرسميون غرباً نحو المركز الملكي للنظام. وفي استخدامها قناطر مرتفعة ومآذن، ففي وسع المعالم تلك إظهار إرثها الهندي ـ الإسلامي الديني والمديني هويةً مدينية أعظم من أي مبانٍ فردية. ومن خلال وضع هذه النصب التذكارية القديمة بين بوابة أفضل والقصر الجديد لنظام فهي توحّد المدينة المسوّرة في مرحلة واحدة من تاريخ الدِّكَّن الهندي ـ الإسلامي، فتستحضر ماضي المدينة البعيد ليخدم هوية عصرية لسلالة آصف جاه الحاكمة.

الرسم الرقم (٢٤ ـ ١١)
تشار مينار



المصدر: المصدر نفسه.

عند الطرف الجنوبي لهذا المسار السياسي، كان مجمّع قصر أفضل الدولة الجديد. يعكس اسم قصر تشاو محل أجنحته (محال) الأربعة (تشهار سو) التي تواجه بعضها البعض حول حوض مستطيل. لقد تم تكييف الشكل الفارسي وفق الذوق الحيدر أبادي في ظل حكم سلالة قطب شاه الشيعية الحديثة، التي سعت إلى ارتباطات بإيران كطريقة لمواجهة الوجود المغولي في الشمال. وقد دفع التصميم الفارسي العام بالكاتب البريطاني كامبيل إلى القول إنه كان «نسخة» عن قصر شاه قاجار[٣٦]. لكن إعادة تصميم تشاو محل لم يكن له علاقة بإيران بل كان يتعلق بالهوية السياسية لسلالة آصف جاه. كانت تشاو محل عام ١٧٥٠ القصر الذي آوت فيه سلالة آصف جاه القوات الفرنسية التي تمت بمساعدتها فعلياً مناهضة وجود البريطانيين في حيدر أباد[٣٧].

في نهاية القرن الثامن عشر، انفجر مستودع بارود ودمر أحد الأجنحة مسجلاً آخر مرة يُذكر فيها المجمّع في السجلات التاريخية أو الأزمنة المحلية حتى عام ١٨٤٩، عندما سُجّل وقوع اضطراب خارج بوابته، ومنح حينها الإذن للجمهور لمقابلة المقيم الكولونيل فرايزر[٣٨]. والعودة إلى هذا الموقع المهجور لأن مركز القوة الأساسي كان طريقة لإعادة رسم التاريخ المبكر لسلالة آصف جاه في حيدر أباد فضلاً عن تاريخ البريطانيين.

أكد موقع تشاو محل فكرة منطقة ملكية مركزية، لكنها قدمت مع ذلك تفسيراً أوسع للهوية الملكية وربما أكثر من قصور نظام القديمة. فهو يقع مباشرة جنوب قصور نظام العائدة إلى القرن الثامن عشر خلف قاعة العرش (الرسم الرقم (٢٤ ـ ٧) #٧). وقد سمح هذا الموقع (بخلاف قصر حويل نظام بوراني) بقيام مواكب طويلة على طول الجادة المركزية بمحاذاة المباني الكبيرة للسلطة السياسية المسلمة في الدُّكَّن. وكان المسجد المستقل الأساسي في المدينة الذي يدفن في فنائه «النظاميون»، والذي يقع مباشرة خلف حائط قبلة مسجد مكة، قد وسّع من منطقة يمكن أن تحصل فيها كل نشاطات العائلة المالكة، بدءاً باعتلاء العرش ومن ثم الإعلان عن السلطة في «الخطبة» والدربار ومن ثم الدفن واحتفال «العرس»، جيلاً بعد جيل.

---

(٣٦) Campell, *Glimpses of the Nizam's Dominions: Being an Exhaustive Photographic History of the Hyderabad State, Deccan, India.*

(٣٧) Sarkar, «Haidarabad and Golkonda in 1750 as Seen Through French Eyes,» *Islamic Culture* (April 1936), pp. 234-247.

(٣٨) كان تشاو محل قصراً قديماً ولكن ليس مركزاً للاحتفال السياسي. لا ذكر للقصر كمجمع في النصف الأول من القرن التاسع عشر، مع أنه يحتمل أننا لم نميّز أسماء أخرى له ربما قبل إعادة ترميمه. انظر: Central Records Office, *Chronology of Modern Hyderabad, from 1720-1890*, p. 237.

عُرفت هذه المنطقة احتفالياً من جهة طابعها المغولي، لكن إعادة تشكيل تشاو محل حوّل التركيز على الإرث المغولي في الهوية الملكية إلى شيء أكثر قدماً وأكثر عصرية معاً. فبخلاف التصميم المغولي السابق لمجمّعات القصور في هذه المنطقة، التي كانت عبارة عن سلاسل طويلة من الباحات تنتهي بأجنحة مفردة، مكّن الشكل الحيدر أبادي الفارسي القديم ذي الأجنحة الأربعة المواجهة بعضها لبعض نظاماً من تمثيل هويات جماعية مختلفة عبر مواريثها البصرية وجمعها في علاقة رسمية موحّدة. تعمل تشاو محل كمجموعتي أجنحة متكاملتين مواجهة إحداهما للأخرى في أجوبة. كان الجناحان المفردان ذوا الطبقة الواحدة في الجهة الشرقية والغربية، مهتاب محل وأفتاب محل، على التوالي، يعكسان في التصميم كما في الحجم واحدهما الآخر.

أما من حيث الزخرفة فقد احتويا على عناصر منفصلة للشمس، أفتاب، والقمر، مهتاب، اللذين يحملان اسمهما. كانت القاعة المركزية لأفتاب محل الغربي مزخرفة بمركّب من الميزات الأوروبية: أعمدة أيونية الطراز وحلية معمارية على الطراز البالاديوني تتحدث عن تمركز الإرث البريطاني في المدينة. تتألف القاعة المركزية لمهتاب محل الشرقي من قناطر مفصصة تعلو أعمدة درابزين مزدوجة بأسلوب استخدمته قصور المدينة القديمة لحاشيتي نظام من المسلمين والهنود. أما القصران فكلاهما مصقولان بالجص بدلاً من أن يكونا مبنيَّين بخشب الساج الحيدر أبادي التقليدي وهو ما يشدد على مادة مرتبطة بالمقر البريطاني والإرث الإسلامي العام في المدينة كرمز لسلطة جديدة. لم تكن الأجنحة المطلية بالجص مباني مبتكرة لجهة موادها فحسب بل افترض القرار بتمثيل أسلوبين زخرفيين منفصلين في هذه الأجنحة المواجهة دمج التصميم البريطاني المستورد بهوية الدَّكَّن الحديثة[٣٩].

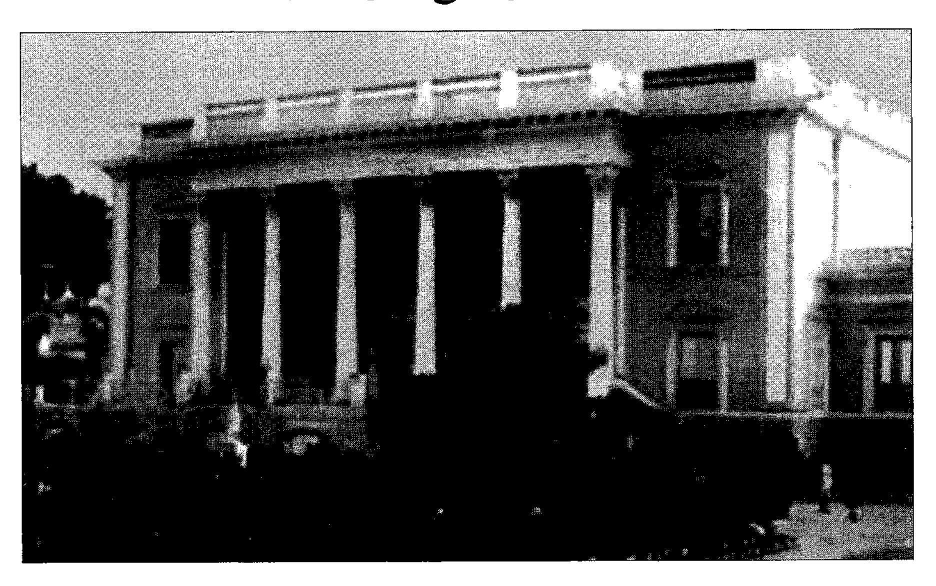
كما افترضت الأجنحة المتباينة المرتبطة في هويات متممة مثل الشمس والقمر بأن نظام كان حاكم جماعتين مختلفتين تجتمعان لتقديم شكل متكامل مثل النهار والليل. وجرى التعبير عن فكرة التعارض الضروري هذه في تلك الأجنحة الأصغر حجماً التي

(٣٩) مع الأسف، لا أدلة كثيرة عن أي نوع من الأعمال جرت في كل «محل». في آخر القرن التاسع عشر، استخدم تهنئة محل من أجل الترفيه الرسمي للزوار، في القرن العشرين استخدم أفتاب محل للإدارة، وتؤكد الصور أن مهتاب محل استخدم للدربار. ومع ذلك لا يعني ذلك الكثير حول منتصف القرن التاسع عشر. تصميم القصور الأربعة لموقع سلطة سياسية يعني أنه كان هناك أساليب لقاعات مختلفة، وهو ما يسمح باختيار هوية سياسية دون أخرى في أثناء مفاوضات نظام حول سلطته. يتضح هذا مع نظام السادس في القرن التاسع عشر حين ركز على هوية دربار صوفية بجعل الدربار في قاعة مغولية.

شغلت جانبي المجمّع. أما الخيارات المتخذة في أفضل محل الجنوبي وتهنئة محل الشمالي، اللذين لا يشكلان صوراً تعكس بعضها البعض، بالاسم أو الشكل، فهي بحاجة إلى تحليل إضافي.

يقع عند الجانب الجنوبي من تشاو محل أكبر جناح، يدعى بحق أفضل محل. إنه عبارة عن قاعة معمّدة ذات طابقين كبيرين مرجعها المقر البريطاني في تشادرغات بصورة واضحة (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ١٢)).

الرسم الرقم (٢٤ ـ ١٢)
قصر تشاو محل، جناح أفضل (جنوب)

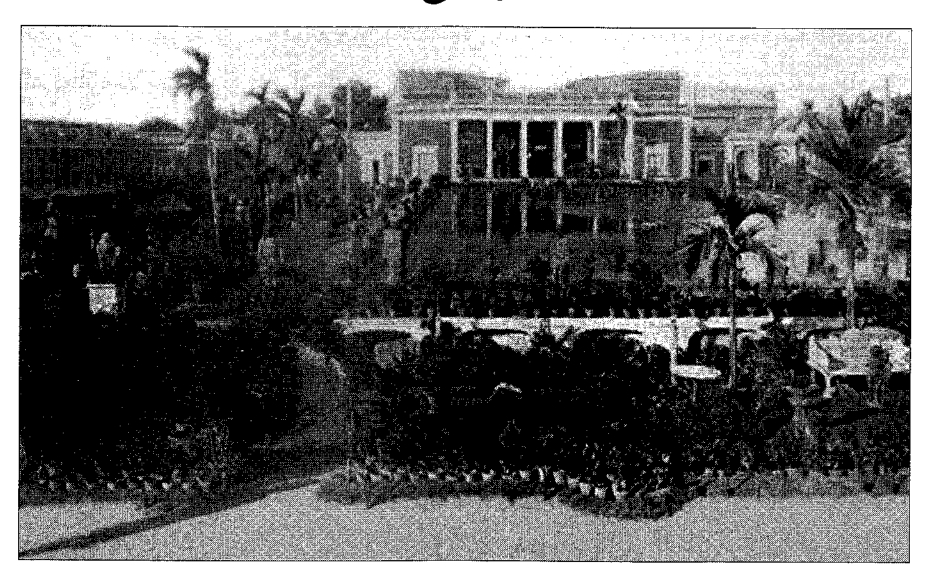


أما في مواجهة أفضل محل عند الطرف الشمالي للمجمع فنجد تهنئة محل (ويشكل مير تهنئة علي خان لقباً آخر لنظام الخامس) وهو تكييف مخفّض لأفضل محل باستخدام زخرفة القصر الجنوبي في جناح حيدر أبادي متناسب بصورة أبسط (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ١٣)).

يذكّر أفضل محل برواقه المعمّد الذي يبيّن ستة أعمدة كورنثية شاهقة، وقاعته الدربار الداخلية المزخرفة بتفصيل بالاديوني من الجص المنحوت وبهو يحيط بالغرفة في الطابق الثاني، بالمقر لكن ليس في شكله الخارجي كثيراً الذي أزيلت قوصرته

البالاديونية كلياً من جماليات الدِّكّن كما من أمكنتها الداخلية[٤٠]. أما شعائرية الدربار فقد كانت في آن معاً أقوى سياسياً وأسهل اندماجاً مع الإرث المعماري المحلي.

الرسم الرقم (٢٤ ـ ١٣)
قصر تشاو محل، جناح تهنئة (شمال)



أثبت مقر تشادرغات بصورة واضحة لأسلاف أفضل الدولة بأنه مبنى معقّد آخذين بعين الاعتبار التعديات السلبية التي مارسها النظاميون السابقون. فقد مثّل الطابع الأجنبي للبريطانيين وقوتهم التي تلوح خارج المدينة المسوّرة كما لو أنها موازنة لتولي سلطة الدولة. لقد بيّن أفضل محل بفعالية صورة المقر البريطاني في تشادرغات كقطعة من الإرث الملكي من خلال وضعه ضمن قواعد هندسية فارسية دكّنية[٤١]. ولكنه سرعان ما تبنى التعريف البصري للسلطة البريطانية وقلّص أجنبة السلطة الممثلة

(٤٠) لا يزال تشاو محل من أملاك «نظام ـ تراست».

(٤١) لم يستورد قصر أفضل الدولة فقط العمارة البريطانية لأجنحة حيدر أباد لتشكل هوية آصف جاه جديدة، بل هو لصق التراث الإنكليزي على قمة تاريخ الفرنسيين في الدِّكّن. بني أفضل محل على موقع للكومندان دي بوسي، ثم صار لشركة الهند الشرقية البريطانية في القرن التاسع عشر، واستخدم كمقر له. راجع ساركار «من خلال عيون فرنسية». وفيها تغير بالتأكيد نوع الدعم، من تقديم الخدمة العسكرية في منتصف القرن الثامن عشر ولتتحقق السيادة الكاملة في منتصف القرن التاسع عشر، تاريخ افتتاح تشاو محل لحظة تأسيس السلطة البريطانية من خلال العودة إلى الموقع المرتبط بالتراث الفرنسي. وحقيقة أن الجناح الشمالي دمر بانفجار ذخائر في نهاية القرن الثامن عشر ولم يرمم تقريباً حتى حكم أفضل يقيم الدليل على ذاكرة مستمرة متصلة بموقع متّصل بالحضور الفرنسي القديم، بالرغم من أنه يعيّن =

بالمبنى البالاديوني الأصلي، وجعل الإرث الثقافي للمقر الميزةَ المركزيةَ للسلطة الهندية ـ الإسلامية الدكّنية الحديثة. أعاد قصر نظام الخامس الجديد ضبط ذاكرة أصوله إلى الوراء إلى أصل دكّني عام، جاعلاً الانتقال بين قطب شاه والسلالة المغولية عبر تطوير جزء جديد من المركز الملكي، ومُدْخِلاً العمارة البريطانية في رمز سلطته. وفي الوقت عينه، ومن خلال التبادل بين الشكلين البصريين البريطاني والمغولي، فقد جعل العمارة الإنكليزية في موقع متعاون أكثر من مما كان سابقاً رمزاً لمعارضة المصادر البريطانية الاستعمارية. في الحقيقة، إن العملية البسيطة نسبياً لإعادة تصميم قصر فارسي إنما أعادت رمزياً تشكيل تاريخ سلالة بأكمله.

لقد أعيد تفسير تشاو محل فقط كمجمّع مستقل تم تخيّله، ولكنني أرى ضرورة قراءته أيضاً كجزء من التنظيم المدني الأكبر للنظام. فالجسر الجديد وطريق المدخل الجديد بين المقر وتشاو محل وسّعا طريق الوصول إلى القصر ومكّنا نظام من المطالبة بـ «جواب» لأفضل محل من مقر تشادرغات البعيد. لا يواجه أفضل محل والمقر بعضهما البعض بالضبط، لأن كليهما يتجهان شمالاً، ولكن بات جسر أفضل غنج الجديد يربط الآن طريق النفاذ الملتف الذي يذهب شمالاً ثم شرقاً إلى الواجهة الأمامية للمقر. وهكذا في وسع المرء، بعد أن يترك قاعة دربار تشاو محل أفضل النيو كلاسيكية، بأعمدتها الكورنثية الستة، أن يتقدم في موكب دبلوماسي إلى قاعة «مرايا» الدربار النيو كلاسيكية، بأعمدتها الكورنثية الستة في مقر تشادرغات (الشكل الرقم (٢٤ ـ ٧) #١ و٧). بهذا المعنى يمكن قراءة تهيئة محل ببساطة كخطوة أصغر لإتمام فناء القصر في إطار تنظيم مدني أوسع. فمن خلال الطريق وحدودها الدبلوماسية، تم نقل سلطة المقر الأيقونية من مؤشر على إنشاء السلطة البريطانية في حيدر أباد إلى مجرد جزء في الهوية الجمعية لدولة حيدر أباد.

من خلال هذه المعالم، دخل قطاعا المدينة في حوار وباتا من خلال الجسر أكثر تداخلاً. يعرض الطريق المتفرع الآن من الجسر فعلاً مبانيَ مسلمة تاريخية ومبانيَ بريطانية أحدث عمّقت شرعية نظام وراهنية سلطته. لكن شرعيته وسلطته كانتا أيضاً مرتبطتين مباشرة باللاعب الثالث في مفاوضات آصف جاه حول السلطة: الوزير. كان لأفضل الدولة وزير قوي جداً، سالار جنغ، الذي حاول نظام بجهد إخضاعه لإرادته الملكية، لكن استقلاليته وطرقه «العصرية» أكسبته اعترافاً من بعيد، من لندن مثلاً. كان

= ديناميات ثقافية باتت مفقودة الآن. وبالرغم من أن التاريخ يشير أن الدولة الأميرية بدأت مع البريطانيين، فإن سلالة نظام تعود أكثر إلى الوراء لتضمّ الفرنسيين أيضاً.

قصر ديوان ديودي الخاص بسالار جنغ يقع في أعلى الجادة التي بلغت الآن باتجاه تشادرغات مع بوابة أفضل والجسر الجديد، الواقعة في منتصف الطريق تقريباً بين المقر وقصر نظام الجديد (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ٧) #٤).

لقد استخدم نظام الخامس هذا التنظيم المدني الطولي لإعادة تخطيط إرث هوية سلالته، كما استخدمه للتلاعب بموقع سلطة الوزير، الذي يراهن مكانياً على دور مستقبلي للوزير في دولته الجديدة. ولأن معاهدة التحالف ثبّتت البريطانيين بصورة دائمة في مدينة نظام، كان النظاميون يصارعون ضد وزرائهم من أجل السلطة السياسية الكاملة. لاحظ مقيم بعد مقيم أن النظاميين لم يثقوا بوزرائهم بل شعروا أن وزراءهم كانوا يحاولون اغتصاب سلطتهم[٤٢].

كان صراع نظام لاحتواء الوزير معروفاً جداً. فكان على سالار جنغ الحصول على إذن من سيّده الملكي حتى من أجل مغادرة المدينة[٤٣]. وطبع هذا التعهد رمزياً السيطرة الملكية على الشكل المدني: فمن الشمال كان على المقيم المرور بأفضل درْوَازه للوصول إلى قصر سالار جنغ ـ وكان على سالار جنغ المرور عبر تلك البوابة لمغادرة المدينة. لم يعد الوزير ضمن هذا التنظيم المدني الجديد لاعباً مستقلاً بعد الآن في نظام ثلاثي الممار. وإذا كان على نظام أن يكون على اتصال بالبريطانيين نظراً إلى موقعه السياسي، فيفترض بالوزير في المقابل أن يكون مرتبطاً به بصورة أوضح.

ومع ذلك، لم يكن التنظيم المدني لنظام طريقة للمطالبة بالسلطة لا يمكن مهاجمتها، وقد تركته معالمه عرضة للخلاف نفسه الذي سعى نظام باستمرار لاحتوائه. فمن منظور آخر كان موقع الجسر الجديد إلى جانب بوابة القصر يعني بأن الوزير امتلك الـ «نظام» ولم يعد في استطاعة البريطانيين الدخول إلى المدينة من دون الحصول على موافقته وقد وضع سالار جنغ حراساً على الجسر الجديد لتأمين ذلك[٤٤]. وبعد مرور عام على إنجاز الجسر أكد الوزير بصرياً موقع قصره كنقطة جديدة للوساطة بين قوتين سياسيتين، مضيفاً «منزلاً واسعاً للمأدبة» يدعى نايا مكان (أي الموقع الجديد) إلى مجمّع قصره[٤٥]. كان لنايا مكان، الذي جهز بالأسلوب البريطاني ـ لا بأسلوب

(٤٢) Temple, *Journals Kept in Hyderabad, Kashmir, Sikkim and Nepal*, p. 108.

(٤٣) Bilgrami, *Historical and Descriptive Sketch of His Highness the Nizam's dominions*, p. 174.

(٤٤) المصدر نفسه، ص ٥٥٢.

(٤٥) M. A. Nayeen, *Splendour of Hyderabad: Last Phase of an Oriental Culture* (Bombay: [n. pb.], 1987), p. 98.

المقر ـ أثاث مثل الكراسي والطاولات فضلاً عن غرفة مستديرة[٤٦]. احتل نايا مكان موقع عينة خانة كمكان لاستقبال الزوار البريطانيين وأتيح للبريطانيين المحافظة على تقليدهم بالجلوس على كراس وعدم خلع أحذيتهم لأول مرة ضمن العالم الثقافي للنظم في المدينة القديمة[٤٧].

ومع مرور الوقت أصبح هذا الجناح مكان الانتقال الوحيد، حيث كان يتسلّى البريطانيون (ولاحقاً زوار أوروبيون آخرون) وطلب منهم الذهاب للحصول على أفيال لزيارة المدينة وقصر نظام. ونجد في كتاب إنكليزي حول حيدر أباد في عام ١٨٨٠ تأثراً بزخرفة هذه القاعة «مجموعة كاملة من اللوحات (صور نصفية) الزيتية لجميع المقيمين السابقين في بلاط حيدر أباد وصولاً إلى سير ستيوارت بايلي، الذي غادر في نيسان/ أبريل من العام الماضي (١٨٨٢)»[٤٨]. لم تجمع هذه القاعة، من الأثاث إلى الزخرفة، بين الثقافتين البريطانية والحيدر أبادية كما فعلت أجنحة ديوان ديودي السابقة، بل فصلت بينهما بصورة واضحة، وهو ما جعل منها مجرد مكان يرغب في زيارته المسؤولون البريطانيون. يبيّن الإطار النظري أن استقلالية الوزير باتت الآن ترتكز على إبراز الاختلافات بين القوتين السياسيتين المتعارضتين، وقد سمحت التقاليد الثقافية للاحتفال السياسي لكل منهما بتسليط الضوء على اختلافاتهما.

يؤكد تصميم ديوان ديودي أهمية العمارة والمواكب في حيدر أباد في منتصف القرن التاسع عشر في إطار مطالبتها بماضٍ مناسب لهوية سياسية جديدة. كما يشير إلى واقع المعارك الحقيقية لمستقبل السلطة الملكية بين نظام والوزير سالار جنغ[٤٩]. ارتكزت مطالبة سالار جنغ بالسلطة على بناء مختلف للدولة الأصلية، أي بناء لا تعود جذوره إلى الزمن البعيد للإرث الهندي ـ الإسلامي بل إلى زمن وصول المقيمين البريطانيين في حيدر أباد. وبخلاف أفضل محل الذي تلاءم فعلاً مع الإرث المديني،

---

(٤٦) انظر: Temple, *Journals Kept in Hyderabad, Kashmir, Sikkim and Nepal*, p. 92.
وهو يصفها كمكانية جداً بنيت وأثثت وفق النمط الإنكليزي.

(٤٧) يذكر تامبل عشاء في قصر سالار جنغ أقامته حكومة نظام لمئة وخمسين شخصاً. كانت الباحات رائعة، وكان العشاء وفق الذوق الإنكليزي وعصبة من الجيش أدت فاصلاً موسيقياً بعد العشاء. انظر: المصدر نفسه، ص ١٠٠.

(٤٨) Bilgrami, *Historical and Descriptive Sketch of His Highness the Nizam's dominions*, p. 558.

(٤٩) انظر خصوصاً: V. K. Bawa, *The Nizam between the Mughals and the British: Hyderabad under salar Juny I* (New Delhi: [n. pb.], 1986).
وكذلك دور سالار في برقرطة حكومة نظام وإنهاء سلطة البلاط.

لم يكن نايا مكان ديوان ديودي مرتبطاً بوضوح بموقع تاريخي في المدينة، ودلّ اسمه، المنزل الجديد، على استقلالية الوزير عن التكافل الثقافي للسلطة المتمثلة بالمقر وقصر تشاو محل الخاص بنظام.

من خلال وضع نصب تذكارية من الطراز البريطاني على الجهة الجنوبية للنهر، جعل مجمّعا نظام والوزير تشعّبَ المدينة باتجاه منطقتين بريطانية وآصف جاهية غير واضح. وبينما كانت هذه المواقع مفتوحة أمام النخبة السياسية فقط، وضع أفضل الدولة برعايته مسجدَ أفضل غنج رمزاً تذكارياً لسلطة نظام الهندية ـ الإسلامية على الضفة الشمالية لنهر موسى (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ٧)).

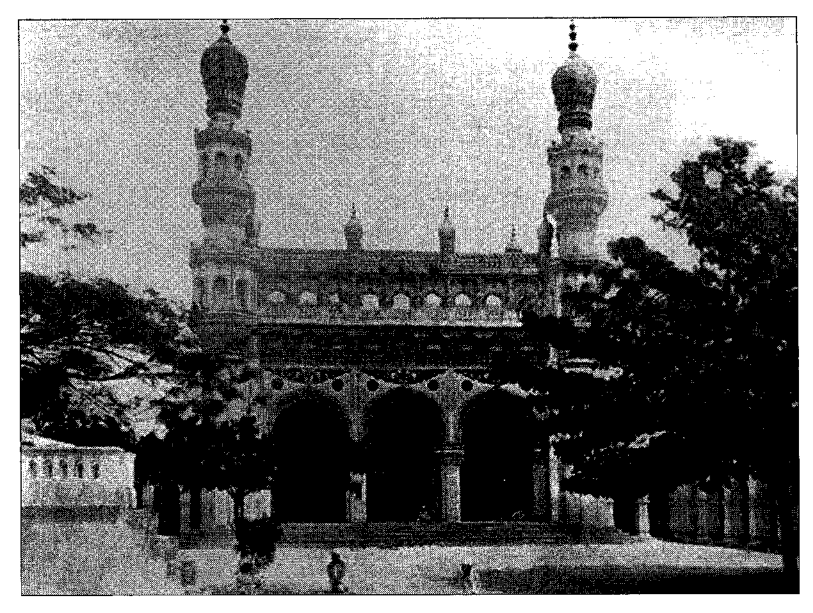
كان هذا الجامع الواقع في المحيط الجنوبي لمنطقة تشادرغات الثقافية غير المسلمة معلماً مرئياً للجميع. كما كان هذا الجامع المشيد من طابق واحد له مداخل موسّعة وفناء كبير أوسع من أي مسجد آخر، باستثناء مسجد مكة وهو أكبر جامع في المدينة القديمة. فالجامع بأسلوبه وعظمته وموقعه يتطابق مع المطالبة بإدخال ثقافة مدينة نظام القديمة في المنطقة التي كان عرّفها سابقاً مجتمعها غير المسلم ونسيجها المديني.

وكإحياء تاريخي لمبنى خاص بقطب شاه، قدم المسجد صورة قديمة وأصلية معطياً شعوراً بالعمق للنسب السياسي للحاكم الجديد ورابطاً نظرياً التواصل مع الإرث الفني والثقافي المحلي الظاهر في المباني التي زينت الشارع الواقع في الجهة المقابلة من النهر (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ١٤)).

لقد شكل المسجد بمواده وهندسته، فضلاً عن زخرفته، تحفةً من هندسة المساجد العظيمة العائدة لقطب شاه. فالزخرفة الجصية المنقوشة المثيرة التي تميز المآذن بقممها المقببة تذكّر بتلك المساجد التي تشكل صفاً على الطريق الرئيسي لضاحية كروان الصحو بالقرب من حصن غولكوندا (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ١٥)).

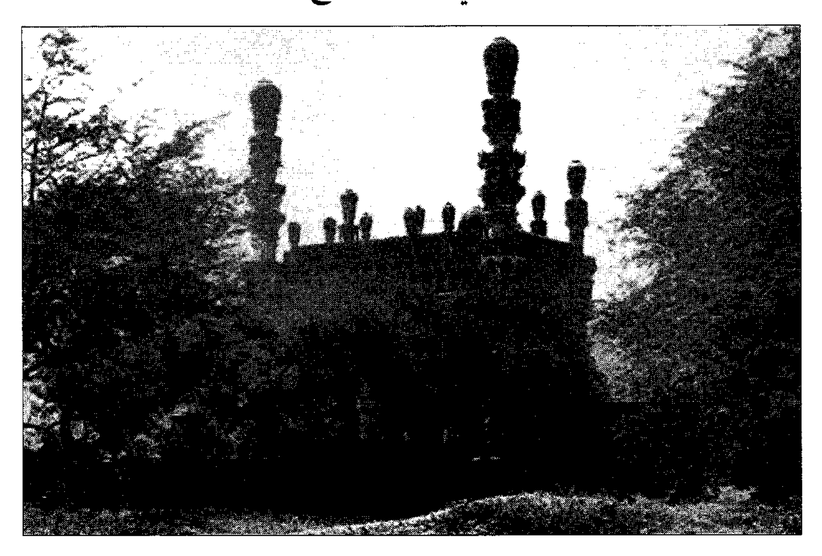
ومن بعيد، ومع منظر مئذنتي المسجد المنقوشتين بشكل معقّد، كما نصوص السقف المزخرفة كثيراً، التي تعلوهما قمم مقببة صغيرة، قد يظن عابر السبيل أنه فعلاً أمام مسجد قطب شاه، وأن المنطقة كانت إحدى أقدم مستوطنات المدينة. وعندما تلقى الخطبة باسم حاكم الدَّكَن، يكون الجو المعماري لمسجد أفضل غنج قد نجح في تقديم صدى محلي عميق. ومع ذلك، فالمعالم الرئيسية لتصميم المسجد تسير بوضوح إلى راعيه المعاصر.

الرسم الرقم (٢٤ ـ ١٤)
مسجد أفضل غنج، الساحة الداخلية



المصدر: Campbell, Ibid.

الرسم الرقم (٢٤ ـ ١٥)
مسجد تولي (القرن السابع عشر)



المصدر: المصدر نفسه.

وفي الوقت الذي لم تشذ مسلوتة المسجد (الشكل الظلي للمسجد) نفسها عن طراز النماذج الأصلية التذكارية الحديثة، فهي لم تخلّد الرمزية الشعبية في استخدام واجهة من خمسة أجزاء ناتئة. وقد صمم هذا المسجد ليكون مسجد قطب شاه لكن من دون الرمزية الشيعية(٥٠).

إضافة إلى ذلك التغيير، شكل المجمع بفنائه الواقع في الطابق الثاني وأكشاك المتاجر المنحوتة على شكل مشكاة في محيط الواجهة عند الأسفل، تصميماً حيدر أبادياً يرقى إلى القرن التاسع عشر. أمّن شيْد المساجد الضخمة التي تعود إلى زمن قطب شاه في مركز خان كروانسراي دخل إيجار من التجار القادمين من مسافات بعيدة والمقيمين في الغرف، بهدف دعم صيانة المبنى وإعالة موظفيه. في ظل حكم سلالة آصف جاه التي استمرت لمئات من السنين، تم شيْد مسجدين مستقلين كبيرين فقط. وقد اختلف هذان المسجدان بصورة واضحة من حيث ارتفاعهما، إذ بحث كل مسجد عن طريقة لتمثيل هوية القرن التاسع عشر، غير أن كليهما استخدما تصميم المجمّع الثنائي الطبقات الذي يتلاءم وحاجات المدينة القديمة ذات المساحة المحدودة (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ١٦)).

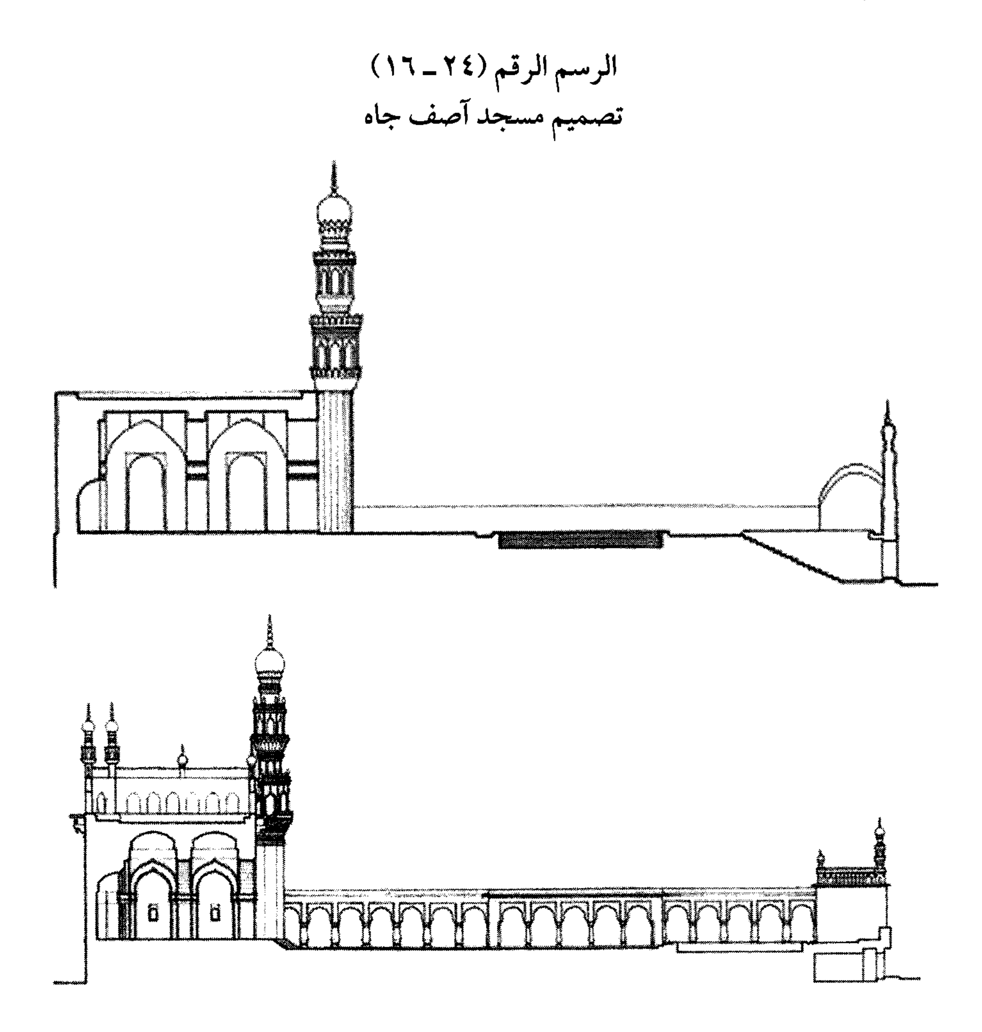
من الناحية النظرية زاد هذا التصميم من ارتفاع الشكل الظلي للمسجد على نحو مثير؛ أما تقنياً فقد كان مؤثراً، إذ استلزم مهارة هندسية مهمة لأن حجيرة المسجد تقع على وطيدة طابق ثان. وفي ضواحي حيدر أباد، لم يكن هناك طلب على هذا التكييف الثنائي الطوابق: فلم تكن الأرض نادرة كما كانت عليه في المدينة القديمة. وقد شكلت المتاجر الداعمة عملياً جانبي المسجد في صف يذهب بطول الشارع، يبقى أن مسجد أفضل غنج اتبّع نمط مسجد مير عالم مندي الأسبق وكذلك نمط مسجد الشوق الأعظم (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ١٧)).

قرار تصميم مجمع كهذا، كان في رأيي، قراراً سياسياً. فقد بنى نظام مجمعاً قديماً وجديداً في وقت واحد، وقدم من خلال ارتفاعه الواضح، ترميزاً يعكس هوية آصف جاه الملكية. كان تصميم الجهة الخارجية لواجهة المجمع المكانَ الذي تقع العين على المناظر الخلاقة فيه. فلأول مرة قدمت هنا صورة ملكية لآصف جاه بشكل محدد عبر استخدام شرفات «شاروقة» على جانبي بوابات المدخل المقوسة البسيطة. وهو النمط نفسه الظاهر عند مدخل قاعة جِلو خانة، التي تؤدي إلى قاعة العرش الملكية. تشكّل

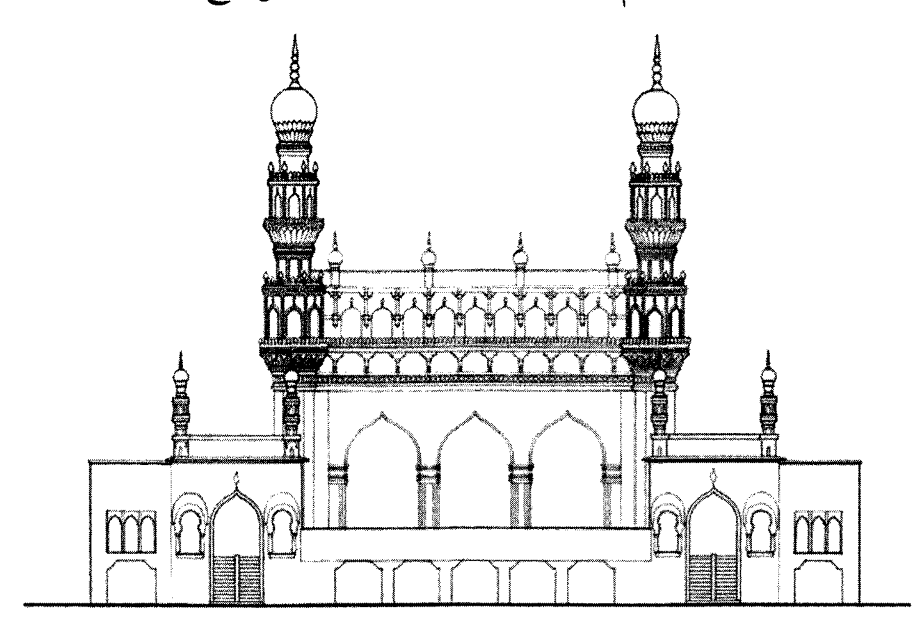
(٥٠) «بانجتان» الشيعة، يظهر رمزياً في عمارة الدَّكَن في نمط خماسي.

النهائيات الموجودة على أسقف أجنحة المدخل تتمة لتلك النهائيات الموجودة على سقف المسجد؛ وهكذا يتم المزج من خلال هذه المباني التي تبدو غريبة، بين صور قطب شاه وآصف جاه المنفصلتين. وباختيار تغيير واضح للأسلوب القديم في مبنى المسجد، بدلاً من إنشاء مبنى حديث أو مبتكر، فهو إنما قرّب وجهتي الرعاية الملكية الشيعية والسنية معاً، ولتغدو إسلامية حيدر أبادية بوجه عام. لقد جمع مسجد أفضل نظرياً بين السلالتين الحاكمتين في الدِّكَّن، أي قطب شاه وآصف جاه، حاذفاً التاريخ المغولي من هويتهما.

الرسم الرقم (٢٤ ـ ١٦)
تصميم مسجد آصف جاه



الرسم الرقم (٢٤ ـ ١٧)
إعادة رسم الارتفاعات الأصلية لمسجد أفضل غنج



قدّم المسجدُ المشيد ظاهرياً لتوجيه المؤمنين نحو القبلةِ والمركزِ المقدس في مكة، وبوضوح، ثقافةً سياسيةً محلية كذلك. فمن خلال تشكيل تصميم هجين، والتركيز على الموقع عند المسار الطقسي الدبلوماسي، تأخذ رعاية المسجد معنى قوياً بوجه خاص. وبوصفه مؤسسة ذات سلطة سياسية، فهو خدم هدف إحياء ذكرى الحاكم في الخطبة أمام رعاياه المسلمين.

أما بوصفه معلماً على طريق الطقوس الدبلوماسية، فهو إنما كان يشير إلى تراث السلطة الإسلامية في المدينة في ما يتعلق بالبريطانيين. لقد كانت راية الإسلام الخضراء هي التي اجتمع خلفها الثوار ضد البريطانيين عام ١٨٣٩ ومجدداً عام ١٨٥٧ (في مساهمة حيدر أباد في الثورات الإقليمية في ذلك العام). في المساجد داخل المدينة نظّم المولويون الرجال ضد البريطانيين وأمكنهم حتى رفع راية الإسلام الخضراء فوق المقر في مرحلة ما من عام ١٨٥٧. واجه المسجد مباشرة قوة دار المندوب السامي ونافسه على دوره كمرساة وحيدة لمنطقة منفصلة بعيدة. ولأن المسجد لحظ الارتباط المباشر شمالاً من المدينة القديمة، فقد قدّم الإرث والتوجه الإسلاميان مرساتهما الخاصة للتطور المستقبلي لضاحية عاصمة آصف جاه.

خلاصة

توفي أفضل الدولة بعد أشهر من اكتمال شيْد مسجده، ولم تتح له بالتالي فرصة عرض رؤيته التوحيدية عبر الطقوس والاحتفالات الدبلوماسية. لكن مشاريعه كانت قد حددت ديناميات الشعائر السياسية لاستمرار الحكومتين البريطانية الهندية والآصف جاهية، ولا تزال تشجع على ملاحظة رابط قوي بين سلالتي قطب شاه وآصف جاه.

كان نظام الخامس الذي اجتاز حكمه الانتقال الأساسي في السلطة السياسية أول نظام من سلالته يتعهد مشاريع رعاية عامة أساسية في المدينة. لقد أعاد تنظيمه المدني كتابة تاريخ سلالة آصف جاه من خلال مواقع تاريخية مختارة وإنشاء مسارات جديدة للتفاعل السياسي. أسست مشاريع أفضل الدولة الثلاثة معاً كتنظيم مدني، وشكل الممر بينها، طريقاً طقسياً لتوحيد شكل المدينة بخيط من السلطة السياسية، في الوقت الذي دلّت الأجزاء الفردية على بناء هوية جديدة واضحة في العمق التاريخي والراهنية السياسية معاً. لقد عبرت هذه المعالم عن التزامات تجاه مواريث وسلطات ثقافية مختلفة، فضلاً عن السياسية، وقد جلبت مشاريع نظام الخامس هذه الأماكن في علاقة مكانية واضحة من خلال تغيير السياق الذي نشأت فيه. وأنا افترض أن نظام قد عرض من خلالها تقديم جديد لأصول آصف جاه.

خدمت الأساليب العمرانية في الهند البريطانية للقرن التاسع عشر أهدافاً سياسية، كما أن تعريف المكان المديني والسيطرة عليه كانا على نحو واع عملاً سياسياً قوياً. تقدّم العمارة التي تركها أفضل الدولة الدليل لاكتشاف طريقته في التعريف بمكانته. والنظرة إلى البيئة المدينية للمعالم تظهر كيف أن مشاريع البناء الثلاثة خلقت بناء مزدوجاً للسلطة في جغرافيا مدينية جديدة؛ إن تحليلَ جسره وقصره ومسجده، معاً كبيانات سياسية متداخلة مرتكزة على إرث هندي ـ إسلامي، يفترض بأن الطرف الإمبراطوري كان مشتركاً بفاعلية في العمليات نفسها كما في المركز الاستعماري، لكن في الجوهر لأهداف ثقافية وسياسية مختلفة كثيراً.